من روائع الأدب الروسي

12 قصة قصيرة

تُنشر لأول مرة

أشرف عليها وأعدّها للنشر

محمد حامد

obeikandl.com

مقدمة

الأدب الروسي يحتوي على عدد من الروائع التي تعتبر من أعظم الأعمال الأدبية العالمية، خاصة في مجالي الرواية والشعر، ويعكس هذا الأدب تأثرًا كبيرًا بالتطورات التاريخية التي طرأت على روسيا كاعتناق النصرانية والغزو التتاري. وظهرت أعظم الأعمال الشعرية والنثرية والمسرحية الروسية في القرن التاسع عشر الميلادي.

كانت بدايات الأدب الروسي عام 988م، وكان معظمه في تلك الفترة دينيا على شكل مواعظ وأناشيد وسير للقديسين. وقد كتب رجال الدين الجزء الأكبر من هذا الأدب، وكانوا أيضا قرّاءه. أما الأدب اللاديني فأهم عمل فيه هو التواريخ، إذ كانت عاصمة كل إمارة تحتفظ بسجل تؤرخ فيه الأحداث، وأهم أعمال تلك الفترة المبكرة القصيدة الملحمية النثرية أنشودة حملة إيغور، التي كتبها مؤلف مجهول في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي.

وكان الأدب الروسي أقل عطاء في ظل حكم التتار، ولكن مع اكتساب موسكو السلطة بعد هزيمة التتار عام 1480م، وتوحد روسيا في ظل حكم أمير موسكو، الذي أصبح يدعى قيصر فيما بعد، ظهر ما يعرف بالأدب الموسكوفي الذي ركّز على الموضوعات السياسية، وأبدى اهتماما كبيرًا بالأسلوب.

بدايات الأدب الحديث

شهد القرن السابع عشر تحولا جذريا في الأدب الروسي، نتيجة ترجمة عدد كبير من الأعمال الأدبية الغربية وتقليدها. وظهر الشعر المقفى لأول مرة في روسيا. وكان أكبر كتَّاب هذا الأدب الجديد أفاكوم، أحد رجال الدين المحافظين، الذي تميزت كتابته

باللغة المعبرة والوصف الحي للحياة اليومية، كما أدخل الراهب سميون بولتسكي في الشعر نظامًا صادقًا، يعتمد على المقطع في الأدب الروسي.

عمد القيصر بطرس الأول (الكبير) الذي بدأ حكمه عام 1682م إلي إدخال الطابع الغربي في الحياة الروسية، مما أدى إلى اكتساب الأدب الروسي صبغة غربية شاملة خلال القرن الثامن عشر. ويطلق على ميخائيل لومونوسوف لقب مؤسس الأدب الروسي الحديث ورائد المدرسة الكلاسيكية. فهو الذي أوجد الشعر الروسي الحديث الذي يعتمد على نسق منتظم من المقاطع المجزأة وغير المجزأة.

ازدهرت المدرسة الكلاسيكية في روسيا في الأربعينيات من القرن الثامن عشر، تحت تأثير النماذج الغربية، وكان أصدق المعبرين عن مبادئها الكساندر سماروكوف الذي كتب قصصا ومسرحيات وأعمالاً هجائية وأغاني.

وكان أبرز شعراء القرن السابع عشر غافربيل درجافين الذي يمثل شعره نقطة التحول من الكلاسيكية إلى الرومانسية.

العصر الرومانسي

بدأت بذور الحركة الرومانسية تظهر في الأدب الروسي في أواخر القرن الثامن عشر، وفي البداية كانت أقوى نزعة رومانسية هي النزعة العاطفية التي طغت في العقد الأخير منه، وركزت على المشاعر والخيال، ولكنها استمرت في استخدام الأشكال الشعرية الكلاسيكية. كما عرف عدد من كتاب العقد الأول من القرن التاسع عشر باسم أدباء ما قبل الرومانسية، وامتازوا عن العاطفيين باهتمام أكبر بالطبيعة وبالأمزجة المختلفة.

وفي العقد الثالث من القرن التاسع عشر ظهر جيل جديد من الشعراء يمثل البداية الحقيقية للرومانسية وبداية العصر الذهبي في الشعر الروسي. وقد جمع هؤلاء أيضًا بين المشاعر الرومانسية والأشكال الكلاسيكية لكن مواضيعهم كانت أكثر تنوعًا، وأبدوا اهتمامًا أشد بحرية الفرد، وتأثرًا كبيرًا بالشاعرين

الإنجليزيين شكسبير وبايرون.

كان ألكسندر بوشكين أعظم شاعر غنائي روسي وأبرز كاتب في مرحلة الرومانسية المبكرة. وتميزت أشعاره بلغتها الموجزة وبلاغتها الفائقة في التعبير. والأسلوب الموجز لبوشكين يجعل شعره يستعصي على الترجمة. ويبحث بوشكين في قصائده السردية عن موقع الإنسان في المجتمع. وكثير من شخصياته الرئيسية مثل البطل يوجين أونيجين (1825-1832م) ليسوا قادرين على إيجاد هدف للحياة وهم ينتهون ضجرين وبعيدين عن مشاعر الحب.

كتب بوشكين عام 1825م مسرحية تاريخية بعنوان بوريس غودنوف في شعر مرسل. وكانت تلك محاولة منه لإدخال الأسلوب الشكسبيري في عرض الأحداث، حسب التسلسل الزمني، في المسرحية الروسية. والفارس البرونزي قصيدة قصصية كتبها بوشكين عام (1833م) تعتبر إحدى أعظم قصائده السردية، ويلقي فيها الضوء على محاولة بطرس الأكبر لإدخال المدنية الغربية إلى روسيا وتأثير ذلك على الروس العاديين ويوضح النتائج العظيمة والمأساوية أيضًا التي تنتظرها روسيا من وراء هذه الرغبة الجامحة.

كتب بوشكين أيضًا رواية وعددًا من القصص وكانت روايته بنت القبطان (1836م) شبيهة بالروايات التاريخية للسير وولتر سكوت الكاتب الرومانسي الأسكتلندي. ومن أجمل قصصه قصة ملكة البستوني (1834) التي تدور أحداثها حول مقامر يصاب بالجنون، بعد أن يفشل في الحصول على بعض الأموال في لعب القمار.

أديب آخر من البارزين في عشرينيات القرن التاسع عشر الميلادي هو ألكسندر غريبو يدوف، وأشهر أعماله ويل من الفطنة (1825م). والقصة ملهاة هجائية كتبها في قصيدة مقفاة. وبطل القصة تشاسكي، كما هي الحال في رواية يوجين أونيجن لبوشكين، يجد نفسه عاجزًا عن الانسجام مع مجتمعه. وقد اشتهر كل من تشاسكي وأونيجن بأنهما من طراز الرجال عديمي الفائدة الذين

تحول طبائعهم الضعيفة دون السعي والكفاح لأجل الوصول إلى أهداف بناءة. واستخدم الأدباء هذه الشخصية بعد ذلك في وصف النبلاء الروس، العاجزين عن إيجاد زعامة تحررية قوية تدعم الإصلاحات السياسية والاجتماعية. وظهرت هذه الشخصية الخالية الوفاض في الأدب الروسي مرات عديدة. خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

شهد الأدب في هذه الفترة حرية أوسع في الشكل والأسلوب وإعجابًا بالمشاعر والانفعالات الإنسانية. وهذه الحركة التي بدأت في ثلاثينيات القرن التاسع عشر الميلادي ركزت أيضًا على تعميق أهمية الأحلام والرؤى والخيال. وكان الفساد السياسي والأخلاقي ضمن المواضيع السائدة في بعض الكتابات الرومانسية المتأخرة في الأدب الروسي. غير أن الرقابة اشتدت في عهد القيصر نيقولا الأول الذي بدأ حكمه سنة 1825م واشتدت الرقابة بشكل خاص على جميع الأعمال الأدبية الناقدة للمجتمع الروسي ولا سيما ما يتعلق منها بعبودية الأرض. ومن أبرز كتَّاب هذه المرحلة: ميخائيل ليرمنتوف وفيودور تيوتشيف ونيقولاي جوجول.

كان ليرمنتوف من الشعراء والروائيين البارزين. ويعبر كثير من أشعاره العاطفية عن الإحباط الشديد والتبرم بالحياة في روسيا وكان ليرمنتوف يحلم في شعره بفردوس بعيد المنال. إن الشموخ والرغبة الجامحة يؤديان بالبطل في قصة ديمون (نحو عام 1839م) إلى إضاعة هذا الوضع المثالي. وكانت قصة بطل من عصرنا (1840م) التي كتبها ليرمنتوف أول رواية نفسية في الأدب الروسي. والبطل بتشورين مثال آخر للرجل خالي الوفاض، إذ أنه يضيع حياته في مغامرات لامعنى لها، لأن الطبيعة القاسية للحياة الاجتماعية والسياسية في روسيا تحول بينه وبين أي نشاط مفيد سوى القيام بواجباته العسكرية. وكتب تيوتشيف، وهو شاعر رومانسي لامع آخر، عن مثل هذه المواضيع، مثل موقع الكائنات البشرية في الكون ومدى فهمهم للطبيعة المحيطة بهم ومقدرتهم على الاتصال بعضهم ببعض لغويًا. ومن ضمن قصائده الشعرية

سيلانتيوم (1830م)؛ حلم في البحر (1833م)؛ ليست الطبيعة ماتظنها أنت (1836م).

وكان جوجول أحد أشهر الأدباء الروس. وقد قدم في أعماله الأدبية المبكرة أوصافًا تنبض بالحيوية عن الحياة في أوكرانيا، مسقط رأسه. وتاراس بولبا وهي رواية تاريخية يمجد فيها جوجول عظمة القوزاق الأوكرانيين الأوائل. واعتبر نقاد الأدب كثيرًا من أعمال جوجول المتأخرة هجاءً سياسيًا غير أن جوجول، كان يهدف أصلاً إلى السخرية من ضعف الإنسان الروحي. وتمثل الشخصيات الواردة في قصة المفتش العام (1836م) العيوب الشائعة في الطبيعة البشرية وقصة الأرواح الميتة (1842م) رغم عدم اكتمالها فإنها تعتبر من أروع سخريات جوجول، إذ نجد أن بطل القصة يتنقل داخل روسيا وهو يشتري سندات التملك لعبيد الأرض المتوفين، الذين لا تزال أسماؤهم مدونة في السجلات وهو يخطط لاستخدام تلك السندات في عملية احتيالية. وهذه الحكاية وهي هجوم على تفشي الفساد الأخلاقي، وقد أساء القرّاء في عهد جوجول فهمها وعدُّوها انتقادا للفساد السياسي.

عصر الواقعية

برزت الواقعية في الأدب الروسي في الأربعينيات من القرن التاسع عشر، وسعى معظم أتباعها إلى إعطاء صورة صادقة عن الحياة والدعوة في نفس الوقت إلى الإصلاح الاجتماعي. وفي البداية جمع الأدباء خصائص رومانسية وواقعية في كتاباتهم.

وإيفان تورجنيف من الروائيين البارزين ومؤلف روايات مسرحية أظهر تفهمًا عميقًا للمجتمع الروسي وشعبه. وساعدت روايته دفتر الرياضي (1852م) على تأجيج عواطف الجماهير نحو عبيد الأرض في روسيا ووصفهم تورجنيف بأنهم أناس ذوو مودة وكرامة. وصور أصحاب الأرض بأنهم أشخاص غير ناضجين وأنهم عديمو الإحساس. وفي رواية رودن (1856م) يصور تورجنيف الرجل التقليدي خالي الوفاض بوصفه شخصًا متحررًا، مصابًا بالإحباط. أما الآباء والأبناء فقد جاءت في المرتبة الأولى من بين

أعمال تورجنيف في محتواها الدرامي وتحليل شخصياتها. وهو يعرض فيها الشباب الروسي المتطرف في السنوات الأولى لستينيات القرن التاسع عشر الميلادي يصفهم بأنهم ذوو إرادة قوية، وهم لا يحترمون السلطات ولا يراعون التقاليد ويرغبون في إحداث التغيير، غير أن المجتمع ليس مستعدًا للقيام بالثورة. ويموت البطل بازاروف في حالة يأس وإحباط. وكان أحد موضوعات تورجنيف المفضلة هو الحب الناشئ كما جاء في آسيا (1858) والحب الأول (1860م). ففي الحب الأول يمر شاب بتجربة صدمته، حين يكتشف أنّ البنت التي يحبّها هي خليلة أبيه. وفي أنجح رواياته المسماة شهر في الريف (وقد أكملها عام 1850م) يسرد تورجنيف قصة مماثلة، حيث تتنافس إحدى البنات وولية أمرها على حُب مدرس شاب.

حاول الروائي إيفان غونجاروف إقناع الروس المتحررين بأن العمل الفعلي وليست الأفكار العاطفية، هي التي تؤدِّي إلى الإصلاح الاجتماعي. وفي رواية أوبلوموف (1859م) يصور المؤلف، الرجل خالي الوفاض، صاحب أرض كريم المحتد ومع أن أوبلوموف شخص ذكي إلا أنه قد فشل في تحقيق أي هدف مما كان يحلم به. وقد بدأ الروس على أثر نشر هذه الرواية بالإشارة إلى أي عمل غير مجدٍ لأصحاب السلطة، بالأوبلوموفية.

كتب ألكسندر أستروفسكي، وهو أكثر كتاب المسرحية الروس شهرة وأغزرهم إنتاجًا، روايات ينتقد فيها الطبقة الوسطى. واستخدم اللغة الروسية اليومية الدارجة مما جعل رواياته تلقى إقبالاً شديدًا. والأوغاد في روايات أستروفسكي هم نتاج العالم التجاري، وهم جشعون ومخادعون ومتحكمون. وفي رواية الفقر ليس جريمة (1854م) يقرر أحد رجال الأعمال الأنانيين تزويج ابنته من أحد الأثرياء الغشاشين. وأعظم أعمال أستروفسكي العاصفة (1860م) يصور فيها الكاتب القصة المأساوية لزوجة أحد التجار، التي تُقْدِم على الانتحار لكي تتخلص من استبداد حماتها.

برز في خمسينيات القرن التاسع عشر كاتب آخر هو سيرجي إكساكوف. وقد استند في وصفه المفعم بالحيوية للطبيعة والناس على الخبرة الطفولية. وعلى نقيض الأدباء الواقعيين الروس، لم يهاجم إكساكوف المجتمع الروسي في كتاباته ولم يدافع عنه أيضًا. ومن بين رواياته تاريخ العائلة (1856م)، و طفولة الحفيد باغاروف (1858م).

جاءت ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر الميلادي، لتنتهي خلالها الرومانسية في الأدب الروسي وبرز الكتّاب الواقعيون الروس وهم يكتبون عن الأوضاع الاجتماعية وحلت كتابة النثر المبسط محل الأسلوب الأنيق للرومانسية وأصبحت الرواية الشكل الرئيسي للكتابة الأدبية. وقد تضمن العديد من الرِّوايات شخصيات مفعمة بالحيوية ولكن في بنية قليلة الحبكة.

ألَّف الكونت ليو تولستوي، وهو أكبر كاتب روسي في الأدب القصصي أعظم رواياته في ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر. ونبذ تولستوي القيم الرومانسية للبطولة والحب العذري وأظهر بدلاً من ذلك اهتمامًا عميقًا بالمراحل الطبيعية للنمو البشري، كالولادة والزواج والوفاة. وروايته الرائعة الحرب والسلام (1869م) جلبت الانتباه إلى طبيعة الاجتياح الفرنسي لروسيا ونيرانه عام 1812م. ولكن الرواية ترفض كذلك فكرة الحرب وتكشف عن رغبة تولستوي في حياة هادئة تنسجم مع الطبيعة. وفي أنّا كارنينا (1877-1875م) هاجم تولستوي الحب الرومانسي باعتباره ضربًا من الانغماس الذاتي وشجع بدلاً من ذلك الإحساس بالواجب الأخلاقي وحب الأسرة. أما روايته موت إيفان إيليتش فإنها صورة مرعبة لموت رجل، وقبوله لمصيره المحتوم باعتبار ذلك نهاية طبيعية للحياة.

ومن الكتاب الروائيين الروس الكبار دوستويفسكي الذي اشتهرت رواياته بالأوصاف الدراماتيكية للصراعات الداخلية، والتي تعاني شخصياتها من تنازع روحي عنيف بين إيمانهم بالله ومشاعرهم القوية المفعمة بالكبرياء والأنانية. ويصف لنا

دوستويفسكي في الجريمة والعقاب (1866م)، وهي روايته الأكثر إثارة، حالة أحد القتلة وهو يقاسي عذاب الضمير، ثم يسترد البطل حالته الطبيعية، عندما يعترف بجريمته ويرضى بالعقاب الذي يستحقه. ورواية الممسوس (1872-1871م) والتي تُعرف أيضًا بالأبالسة، يصف لنا فيها الكُتّاب السياسيين المتطرفين. وفي رواية الإخوة كارامازوف (1880-1879م) وهي آخر روايات دوستويفسكي وأعظمها، يتحدث عن رجل شرير يقتله أحد أبنائه الأربعة. والصورة الرمزية التي يعرضها المؤلف عن نجاة الأولاد الآخرين من الخطيئة، هي إيمانه بالقدرة الإلهية على إنقاذ الناس من الخطيئة.

الواقعية المتأخرة

عندما جلس إسكندر الثالث على عرش القياصرة، عارض كثيرًا من الإصلاحات التي قام بها والده إسكندر الثاني، وظهرت موضوعات كثيرة، تتسم باليأس والمرارة في الكتابات الروسية، نتيجة لقسوة الحكم القيصري في ثمانينيات وتسعينيات القرن التاسع عشر. وأصبحت القصص والمسرحيات تُمثِّل الأشكال الأدبية للواقعية المتأخرة.

وكان أنطون تشيخوف من كتاب القصة القصيرة والمسرحية البارزين. ومعظم أعماله تتعلق بالسأم والإحباط من الحياة. وفي رواية لونيتش (1898م) يورد تشيخوف قصة طبيب مثالي حساس، يصبح كسولاً و معجبًا بنفسه كلما تقدم في العمر. و العم فانيا (1899م) مسرحية عن أحد المثقفين الذين يصيبهم الضياع، فيعيش حياة واقعية، بينما كان يعتقد بأنه يكرس نفسه للمثاليات. وتحكي الأخوات الثلاث (1901م) قصة أسرة يتصف أعضاؤها بضعف شديد في الإرادة، بحيث لا يبذلون أي جهد لتحسين أوضاعهم المعيشية السيئة. ويبحث تشيخوف في بستان الكرز (1904م) انحلال دور الأشراف أصحاب الأرض.

وهناك روايات ومسرحيات وقصص مكسيم جوركي، آخر الأدباء الروس الكبار من الواقعيين والذي تعكس أعماله الأدبية

المبكرة فلسفته الشيوعية وهو يصف الفقر المدقع الذي تعاني منه الطبقات الدنيا. وأشهر مسرحيات جوركي الأعماق الدنيا (1902م) التي يفرغ فيها المؤلف الحياة البائسة التي يعيشها ساكنو أحد الملاجئ في قالب مسرحي. وكثير من الأفكار الرئيسية لأعمال جوركي المتأخرة كانت تتضمن انحلال الطبقة المتوسطة العليا، كما نشاهد ذلك في رواية أعمال الأرتاماتوفيين (1925م). كذلك كتب جوركي سيرته الذاتية المفصلة ونشر مذكراته حول من التقى بهم وصادقهم من كبار الكتاب الروس.

التجديد الأدبي

يطلق اسم العصر الفضي في الأدب الروسي على العقد الأخير من القرن التاسع عشر وأول ثلاثة عقود من القرن العشرين، وهي فترة شهدت قدرًا هائلا من التجديد والنشاط في الأدب. ففي هذه الفترة ظهرت المدرسة الرمزية، التي عادت إلى الأحلام والتخيلات الرومانسية، وكان أبرز كتابها ألكسندر بلوك وأندريه بلي. كما اشتهر في نفس الفترة الكاتبان ليونيد أندرييف، وإيفان بونين.

وتولدت من الرمزية حركة ما بعد الرمزية، التي كانت بمثابة ثورة ضد الغموض والطابع الفلسفي في أعمال الرمزيين، ومن أهم أتباعها مجموعة الذرويون، التي اتجهت إلى كتابة شعر واضح الصور بلغة أكثر دقة. ومن المجموعات الأخرى الشعراء المستقبليون الذين ابتعدوا عن الموضوعات والمفردات الشعرية التقليدية.

ومن أعظم شعراء القرن العشرين بوريس باسترناك، الذي كتب دواوين شعرية في غاية الأصالة، مثل توأم في السحاب (1914م)، وحاز شهرة عالمية من روايته الملحمية دكتور زيفاجو (1957م).

الأدب السوفييتي

تمثل الثورة الشيوعية عام 1917 م بداية عصر جديد في الأدب الروسي، فقد أحكمت الرقابة على الأدب، وهاجر كتاب كثيرون، وسُجِنَ وأُعْدِمَ كثيرون غيرهم، وسيطرت الدولة والحزب

على المطابع والصحافة.

وفي العشرينيات من القرن العشرين خففت الدولة من قبضتها الصارمة، وظهرت مجموعة جديدة من الشعراء والروائيين تُدعى رفاق السفر، من أهم أعضائها كاتب القصة إيزاك بابل والروائيان ليونيد ليونوف وألكسي تولستوي.

ولكن الدولة فرضت على الكتاب أن يخدموا أغراضها، فظهرت روايات المصانع مثلاً، مع بدء الخطة الخمسية الأولي عام 1928م.

وفي الثلاثينيات حظرت الحكومة نشاط جميع الجمعيات الأدبية، وأنشأت اتحاد الكتاب السوفييت الذي ابتدع نظرية الواقعية الاشتراكية، وطرد من الاتحاد كل من لم يلتزم بهذه النظرية. وازدهرت الرواية التاريخية في تلك الفترة، ومن أفضلها الرواية الملحمية وبهدوء يتدفق الدون (1928- 1940) لميخائيل شولوخوف. وأثناء الحرب العالمية الثانية، مُنح الكُتَّاب قدرًا أكبر من الحرية وظهرت روايات وطنية، منها أيام وليال لقسطنطين سيمونوف.

خففت القيود مرة أخرى بعد وفاة ستالين، ولكن الرقابة الصارمة عادت بعد نشر رواية ألكسندر سولزينتسين يوم في حياة إيفان دنوسوفتش (1962م). وفي الستينيات، برزت مجموعة من الكتاب الشبان المتحررين ومنهم الشاعر يفجيني يفتشينكو.

وبسبب الرقابة والقيود كانت بعض الأعمال الأدبية تُتَداول سرًا على شكل مخطوطات، ونشر بعضها خارج الإتحاد السوفييتي السابق مثل رواية دكتور زيفاجو.

ومن الأعمال التي نُشرت في الخارج قصص وروايات أندريه سنيافسكي، الذي استخدم اسم أبرام ترتز، وأعمال سولزينتسين الذي منح جائزة نوبل للأدب عام 1970م ونفي من الاتحاد السوفييتي السابق عام 1974م.

ورغم القيود السياسية في السبعينينات استمر عدد من الأدباء في انتقاد المجتمع السوفييتي، وفضح مافيه من أنانية ونفاق. وفي منتصف الثمانينيات وحتى أوائل التسعينيات من القرن

العشرين تضاءلت الرقابة إلى حدٍ كبير في ظل سياسة الانفتاح (الجلاسنوست)، التي تبناها ميخائيل جورباتشوف، ونُشرت لأول مرة بعض الأعمال الأدبية المهمة، التي كانت محظورة في السابق. وبتفكّك الاتحاد السوفييتي عام 1991م إلى دول مستقلة، انتهى عهد الأدب السوفييتي.

محمد حامد

obeikandl.com

obeikandl.com

السلطان وولده...

مكسيم جوركي

اعتمد (التتاري) الأعمى إلى جدع الشجرة من أشجار التوت، وراح يقص واحدة من تلك الأساطير التي سطرتها الذكريات في عقله عن شبه الجزيرة القوم... والتف حوله حشد من (التتار) في بردهم الموشاة المفوفة، ومطارفهم الزاهية المخلبة... وقرت فوق رؤوسهم قلانس مطرزة بالذهب...

وقد جلسوا على أحجار دارسة، وأطلال بالية، كانت حيناً قائمة في جدران قصر فاخر لسلطان من السلاطين القدماء.

كانت الشمس تنحدر نحو مستقرها في البحر، فتبعث أشعتها الجاهدة الكليلة وقد راحت تخترق ستور الظلام. . . وتبعث بحلكته، وتميس بين أوراق الطحلب فتخلع عليها روعة وبهاء، وتسيطر على الأطلال فتبعث فيها شيئاً من الرهبة والوراء...

وبرحت الريح رخاء تداعب غصون الأشجار، وتصاول الأوراق فيسمع لها حفيف وزفيف... وكأن صوت الرجل ينبعث واهناً فيه بعض من الاختلاج والاضطراب؛ أما وجهه فكالصخر جامد لا ينم تجعده على شيء سوى الراحة والهدوء. وانسابت الألفاظ من لسانه حيناً، ومن قلبه أحياناً تعيد لسامعيه صورة جلية للأيام الخالية العامرة بالهناء.

ولم يلبث أن قال في صوت جليل، وجرس ندى:

(زعموا انه عاش في شبه الجزيرة القزم سلطان يقال له... (مسيلمة الأسراب) وكان له ولد يدعى (توليق الجلي).

كان هذا السلطان كهلا، يبد أن قصره ضم كثيراً من النساء اللواتي عشقن السلطان الكهل. . . فما زال جسده يمور قوة ونشاطاً، ولا زالت نفسه تمور مرحاً وشباباً... وما برحت النساء

يعشقن ذا القوة والبأس.! إذ يقال أن الجمال يكمن في ثنايا القوة. . لا تحت الأظافر الناعمة والوجنات الأسيلة المخضبة. . .

كن جميعاً يعشقن السلطان، ولكن السلطان ينصرف عنهن إلى ظبية سباها في حرب له مع (القوزاق) عند مروج النهر (الدنيبر). . . وكان يخص هذه الفتاة بجل حبه وعطفه وحنانه وينفر عن نسائه وجواريه وقد نيفن على الثلثمائة من كل فج وبلد. نسوة منهن العذراء والخود والبضة، والعطبول والغيداء والغانية والرقراقة إلى غير ذلك. . . كانت كل منهن على جمال رائع كالزهور، وقد تفتحت أكمامها في صبيحة يوم اضحيان من أيام الربيع. . .

لم يبخل السلطان عليهن بمال. . . بل كان ينفق عليهن بسعة ويجلب لهن ما يوددن. . . أتى لهن بالخمر الفاخرة. . . وبما لذ وطاب من طعام وشراب. وكان يأذن لهن بالرقص واللهو كما يحلو لهن. ولكن إيثاره للفتاة القوزاقية بحبه كان ينغص عيشهن بعض التنغيص. . .

كثيراً ما كان يدعو الفتاة القوزاقية إلى جناحه حيث يشرف على البحر المسيطر إلى الأفق. . . حيث أعد لها كل ما تطمح إليه نفس امرأة ويهفو نحوه فؤادها كي نلحقها السعادة في الحياة. . . الحلوة والفاكهة والشفوف والغلائل. . . والقلائد من ذهب، والأقراط من شذور، والوشائح من زمرد. . . وثمت الطيور المعتدلة بأغاريد عذبة. . .

هذا غير ما ميزبه السلطان من لطف المعشرودماثة وفتنته. في هذا الفردوس يقيم السلطان أياماً وليالي يمتع نفسه بهذا النعيم ويتذوق الراحة والسعادة وهي تسعى إليه بعد العناء الذي يلقاه من أعباء الحكم. . . يقضي أيامه وقلبه آمن على ولده. . . وقدرته في أن ينهض بعظمة السلطان إبان غيبته. . . فهو يعلم كيف ينسل ولده إلى مروج الروس كالذئب فيغزوها ويغير عليها. . . ثم يعود والنصر يعقد لواءه على رأسه. . . فيكللها بآيات المجد والفخار. . . يعود مثقلا بالغنائم والأسلاب. . . والسبايا الفاتنة. . . يعود بعد أن يخلف الذعر والاضطراب. . . وفلول الأعداء ملوثة بالدماء

والهزيمة... وحدث مرة أن عاد (توليق) من إحدى غزواته للروس فائزاً مضفراً. . فأقام حفلا دعا إليه الأمراء وعظماء الدولة ابتهاجاً بالنصر المبين... وعقدت المباريات ومدت موائد الطعام.. . وراح القوم يقذفون نبالهم على أعين الأسرى ليعرف من هم أشد الجمع ساعداً؛ وأصوب رمياً. . وعادوا إلى الشراب ينهالون حتى أترعوا وهو بين ذاك وذاك يمجدون هذا الفوز والنصر الذي أحرزه بطلهم العظيم (توليق الجلي)... ويشيدون بالخوف والهلع وقد خلفهما يفخران في عظام أعدائه أما السلطان فكان سروره بفوز ولده لا يعادله سرور.. وكان يعتقد أنه إذا ما انتقل إلى السماء سيستوي على العرش من بعده سلطان قوي مرهوب الجانب...

رغب أن يبدى لولده مبلغ حبه وإخلاصه له - على مرأى من شعبه ورعيته فهم والقدح في يده وقال:

(بني العزيز (توليق)... فتح من الله ونصر مبين... والنصر آية من آيات رسوله ونبيه...)

فارتفع صوت الحشد يترنم بأنشودة حماسية تمجد نصر النبي؛ ثم عاد سلطان فقال: (إن الله عظيم خبير. . . لقد جدد قوته ومضائي في ولدي الأروع... إني لأبصر بعيني الغائرتين عندما يغيب شعاع الشمس عنهما إلى الأبد، وعندما يدب الفناء إلى قلبي النابض وأقضي نحبي. . . أني سأحيا ثانية في نفس أخرى. . . في نفس ولدي... فسبحانك اللهم أنت الإله الأوحد الجبار... لقد رزقتني ولداً عظيما صلبا الساعد، ثابت الجأش رزين العقل... فاللهم إني اشهد بوحدانيتك وقدرتك، وأشهد أن محمد رسولك ونبيك.

أبني توليق. . . ماذا تبغي أن تقدم لك يد أبيك؟. اذكر ما تود، وسأمنحك إياه.)

وخفت صوت السلطان رويداً حينما أخذ (توليق الجلي) يتأهب لإعلان رغبته، وقد تألقت عيناه تألق الحر في ضوء القمر. .. عيناه اللتان كأنهما عينا النسر وهو يحوم بقلة الجبل... قال أخيراً:

- مولاي وأبت... امنحني الفتاة القوزاقية...)

وصمت الوالد ليهدئ من روعه، ويسكن من نفسه المضطربة وفؤاده الجياش... وبعد برهة رفع صوته ثابتاً لا ينم عما يعتمل بنفسه: (... خذها... عندما يختتم الحفل).

شملت البهجة والمراح قلب (الجلي). . . وتألقت عيناه النسريتان بدموع الفرح... وقال لوالده السلطان في حب وبر:

- أي والدي ومولاي. . . إني لأقدر مبلغ هديتك إياي. . . إني لأقدره حق قدره... إني ابنك بل قل عبدك المخلص لك... خذ دمي... قطرة في كل لحظة... سأموت أكثر من ميتة فداء لك... يا أبت ويا مولاي...)

فقال السلطان وقد طأطأ رأسه إلى الأرض - رأسه الذي طالما كلله بالنصر بآياته سنوات متتاليات - (إني لأرغب عن كل شيء)

آذنت الوليمة بالانتهاء، فهم السلطان وولده يسيران من القصر إلى دار الحريم...

وكانت السماء تغشيها السحب، فطوت القمر النجوم في حجب مغيبة دام السير طويلا في صمت وسكون... وأخيراً قال السلطان (الأسراب):

- ستفنى حياتي يوما بعد يوم، وسيخفت قلبي في خفقانه حيناً بعد حين. . . وستخمد رويداً هذه الجذور المستعرة في جسدي. . . جذوة الحياة. لقد كان الضوء الذي يشع في حياتي، والدفء الذي يبعث لي بالحرارة هي تلك الفتاة (القوزاقية)... خبرني بني (توليق). . . خبرني إن كنت حقاً في حاجة إليها. . . خذ مائة من حريمي... خذهن جميعاً... بدلاً منها...)

صمت (توليق الجلي)... فعاد السلطان المتيم يقول:

- لقد تقضت حياتي... ولن ألبث طويلاً فوق أديم هذه الأرض. . . فدعني أنعم بحب هذه الفتاة... إنها تعشقني... من ذا سيحبني بعد أن تنأى عني؟! يحبني... أنا يا من دبت في جسدي الشيخوخة. . . من؟ ليست واحدة منهم يا توليق...)

- ولكن (الجلي) لم ينبس ببنت شفة. (بالله. . . كيف يتردد لي

نفس، وأنا أحسب أنك تعانقها... وأنها تقبلك؟... إذا كنا أمام المرأة يا توليق فلسنا والداً وولداً... ليت جروحي - وقد تناثرت في جسدي - نكأت فسال دمي حاراً دافقاً منها... فهذا خيروأفضل من عيشي حتى هذه الليلة...)

انتهى بهما المطاف عند باب الحريم، فوقفا - وقد طأطأ كل منهما رأسه إلى الأرض - وشاع الصمت بينهما، وشملهما الظلام. وفي السماء راحت بعض السحب تطارد بعضها والريح تميل الأشجار عن يمين وعن شمال... وكأنها تترنم لها...

قال (توليق) في صوت هادئ رزين (يا أبت... لقد أحببتها) فقال السلطان (أعلم هذا... كما أني أعلم أنها لا تحبك)

- إن قلبي لينفطر حينما أفكر فيها...

- إني لأشد منك حباً لها...

وعاد الصمت يحلق فوقهما ويرين عليهما... فقال (الجلي) في صوت فيه ألم، وفيه عزاء:

- لقد أدركت الآن صدق الحكمة القائلة (المرأة خلقت لمتاعب الرجل) إن كانت حسناء راحت تغري الآخرين ليتملقوها فتوقظ في زوجها آلام الغيرة والحسرة... وإن كانت قبيحة، فزوجها يعاني من قبحها ويعاني آلام الحسد ومرارة الحقد على غيره... وإن لم تكن بالجميلة ولا بالقبيحة راحت تتدلل على زوجها وتجعله يعتقد انه لم يقم بواجبه نحوها، فهي إذاً مصدر شقاء الرجل وتعاسته في هذه الحياة...)

فقال السلطان:

- ليست الحكمة دواء ناجعاً لشقاء القلب! يا بني

- يا أبت... يجب أن يشفق كل منا على الآخر

فرفع السلطان رأسه، وراح يحدق في ولده... فقال (توليق)

- يا أبت... دعنا... دعنا... نقتلها

فشك السلطان غير طويل ثم قال في تمتمة هادئة:

- إنك تحب ذاتك أكثر منها ومني؟!

- أجل... وأنت الآخر!

فقال السلطان بعد هنيهة في صوت شاع فيه الألم، وشاع فيه الحزن حتى لكأنه ارتد صبياً

- نعم، وأنا الآخر

- سوف نقتلها يا أبت

- لن ادعك تأخذها لنفسك... لن أدعك

- لا اقدر على مجالدة هذا طويلاً... إما أن تمزق قلبي أو تتركها لي. فلم يقل السلطان شيئاً... (أودعنا نلق بها من شاهق إلى البحر فتتردى...) فراح السلطان يردد هذه العبارة، وكأنه رجع الصوت الذي أطلقه ولده... وهو يهز رأسه في شرود وألم.

- دعنا نلق بها من شاهق إلى البحر فتتردى...

دخلا الحريم، واتخذا وجهتهما حيث مرقدها في فراش وثير وثمين... فوقفا ساهمين ينظران... وفي قلب كل منهما لهفة شوق... وألم

وانحدرت من مقلتي العجوز دمعات فسالت على وجنتيه... ثم تألقت على لحيته - وقد حاكت الفضة في لون شعرها - أما ولده فقد قام بعينين لامعتين... يصر على أسنانه ليخفى ذلك الهوى الذي يضطرب بين جوانحه... وقد راح يوقظ الفتاة (القوزاقية).

أفاقت من نعاسها، تفتحت عيناها على وجنتيها الورديتين فكأنهما زهرتان من أزهار الأقحوان...

لم تبصر (التوليق) ولكنها مدت شفتيها الأرجوانيتين إلى السلطان

- قبلني، يا نسري العزيز. فقال السلطان في رقة:

- انهضي... ينبغي أن تأتي معنا...

ووقع طرفها على (الجلي)، والدمع يتألق محبوساً في عينيه... فما أسرع ما أدركت، وفهمت كل شيء... وقالت:

- هه... سآتي... سآتي... ليس لواحد منكما... أليس هذا مبتغاكما؟ وما قر عليه أمركما... للقلوب القاسية أن تقرر وعلى النفوس الضعيفة الواهنة أن تطيع... سآتي معكما...

وأنطلق ثلاثتهم شطر البحر في صمت وسكون. . . سلكوا في

سبيلهم مسالك ضيقة، والريح لها صوت كعواء لبن آوى...

كانت الفتاة نحيلة الجسد، هيفاء القد... فما أسرع ما أدركها الوهن والعناء؛ ولكن كانت تعاني هذا في صمت، ولا يند عنها ما ينم عليه... وإذا لمح ابن السلطان ما اعتراها - وكان يسير إثرهما - أسر لها (أأنت خائفة؟!)

فلمعت عيناها، وأشارت إلى قدميها الداميتين... فقال وهو يمد ذراعيه إليها (دعيني أحملك!)

بيد أنها نفرت منه إلى عنق نسرها العجوز... فرفعها السلطان كالريشة حاملاً إياها... بينما راحت تثني أغصان الأشجار وتزيحها من أمام وجهه.

وطال المسير... وأخيراً طرق أسماعهم صوت البحر وهو يهدر ويزمجر على مبعدة منهم... قال (توليق) موجهاً الحديث لأبيه (دعني أمض أمامك) وإلا حدثني نفسي الأمارة بالسوء أن أغمد خنجري في ظهرك)

- أمض... كما تشاء... إن الله سيغفر خطيئتك هذه... ويعفو عن إساءتك... فقد غفرت لك وعفوت عنك، إني لأعرف ما هو الحب يا بني!

وأخيراً أبصروا البحر يجثم تحتهم... كانت صخرتهم سامقة والظلام يسربلها... الظلام الذي ليس له حد ولا نهاية؛ وراحت الأمواج تهدر بألحان الموت وهو يسري بين الصخور... وقد أخفاها الظلام يحفه القر والخوف.

قال السلطان بعد أن طبع على ثغرة الفتاة قبلة حارة (وداعاً). وقال (الجليّ) وهو يحني هامته لها (وداعاً...).

ألقت الفتاة بطرفها إلى ما تحتها حيث صخب الموج يردد ألحان الرهبة والجلال... فضمت يديها إلى صدرها وقالت في هلع وفرَقَ (اقذفا بي...)

فمد (توليق) يديه إليها وهو يئن ويتأوه... ولكن السلطان أخذها بين ساعديه وضمها إلى صدره وقبلها ثانية... ثم رفعهما فوق رأسه وألقى بها من الصخرة الشاهقة إلى واد سحيق...

وارتفعت ألحان الموج... ألحان الموت... أجل رهبة وأشد فزعاً. .. ولم يسمع للفتاة صيحة وهي تلقى في الماء، أو تلقى حتفها على الصخور.

وتهالك السلطان على نشزوراح يحملق في الظلام يحاول بطرفه يخترق سجف الليل... سجف الغيب... وما برحت الأمواج تلطم الصخور في جنون وهوج... والريح تهب عاصفة في أعقاب موكب الموت... تعبث بلحية السلطان العجوز.

وجلس (توليق) جواره وقد دفن وجهه بين راحتيه، لا يتحرك ولا ينبس... وكأنه الصخر...

وتقضي الوقت والسحب يطارد بعضها بعضاً في جو السماء.. . شاعت الكآبة في ثنايا الظلام الرهيب المهيب، وكأنها تلك الأفكار التي راحت تطوف سوداء بخاطر ذلك العجوز... وهو جاثم على هامة الصخرة السامقة، ومن تحته البحر يهدر في وادٍ عميق... قال (توليق):

- (يا أبت... دعنا نمض...).

فنبس السلطان همساً، وكأنه يتوجس نبأة تسري في الهواء: (مهلاً) وعاد الوقت يمضي، والأمواج تتلاطم في عبث وجنون من تحتها والريح تصفر بين الأشجار كعواء ابن آوى... وعاد الابن يردد عبارته، فردد السلطان إجابته... وكان هذا التردد مراراً.. كأن السلطان لا يبرح مكانه... وقد قبر فيه بهجته ومراحه... وأيامه الخوالي...

بيد أن لكل شيء نهاية، فلم يلبث السلطان أن قام نشيطاً، ولكن عابس الوجه، مقطب الجبين وقال في صوت شاع فيه الجفاء:

- (هيا... بنا!)

وانطلقا... ولكن لم يلبث السلطان أن وقف قائلاً:

(لم أنطلق معك يا توليق... وإلى أين؟! لم أعيش بعدها؟! لم أعيش بعد أن ذهبت بعيداً عني... إني عجوز زلن يهوني أحد ثانية. .. وإذا يهواك فليس ثمت خير في أن تعيش بهذا الكون!).

- (إنك ذو مال! وذو مجد يا أبت!).

- دعني ارتشف من ثغرها قبلة من قبلاتها نظير هذا المال)...

هذا المجد... يا بني. إن الناس جميعاً أموات في هذه الحياة والحي منهم الذي يعشق النساء... إن الحياة هباء بغير النساء،

يا بني... بارك الله فيك وفي ملكك... في حياتك وفي مماتك).

واتجه السلطان شطر البحر... فصاح (توليق) في هلع (أبت... أبت...). ولم ينطق بغير هذا... لأنك لا تجد الكلمات تلفظها لرجل يلقى حتفه باسماً راضياً... رجل آيس من حياته.

- (دعني أرحل...) فقال (توليق): (الله يا أبت...)

- (أن الله يعلم، وسيغفر لي) وبخطا سريعة مضى السلطان إلى نهاية الصخرة... وألقى بنفسه إلى أحضان الوادي... لم يسمع شيء فقد عصفت الريح إثر موكب الموت وهو يمضي في جلال... وراحت الأمواج تدوم هديرها، وكأنها في عراك عنيف مع الصخور.

- وأخذ (توليق) ينظر ويطيل النظر إلى حيث الهوة السحيقة... إلى حيث الموت تحت قدميه... ثم ارتفع صوته جليلاً ورأسه إلى السماء: (يا إلهي... أسألك أن تلهم قلبي الصبر والسلوان... وأن تغفر لوالدي وتشمله برحمتك إنك غفور رحيم).

ثم مضى عائداً إلى قصره والصمت يحف به... حتى غيبه الليل في مطارفه...).

obeikandi.com

obeikandl.com

الملاك...
لوي تولستوي

كان الاسكاف (سيمون) يعيش مع زوجته، وأبنائه في شظف من العيش يسكنون كوخا صغيرا مغبرا، بأجر من المال يؤدونه لصاحبه الفلاح... وكان سيمون يكسب رزقه من عمله في جهد وجحد، وينفق كل ما تمسكه أنامله من دراهم على إطعام عائلته، وما أندر الخبز في ذلك الحين!

وكان للرجل وزوجته مدرعة من صوف يرتديها كل منهما حينا في الشتاء، حتى رثّت وبليت، وقد تقّضى عام وهو عازم على شراء مدرعة أخرى، فما أن أقبل الشتاء، حتى أمكنه أن يقتصد بعضا من المال: ثلاث (روبلات) وخمس (روبلات) وعشرين (كوبك) يدين بها بعضا من زبائنه!

وتهيأ ذات يوم ليؤم القرية، فارتدى (مطرف) زوجته على قميصه، ثم لبس ثيابه الأخرى فوق ذلك، ووضع الثلاث (روبلات) في جيبه، واقتطع لنفسه عصا يتوكأ عليها، واتخذ سبيله إلى القرية بعد أن أفطر...

وفي طريقه راح يحدث نفسه: (سوف أحصل على الخمس (روبلات) وأضيفها إلى الثلاث (روبلات) فيصير ما معي كافيا لشراء مقدار من الصوف لمدرعة الشتاء!)

ولما بلغ القرية بعد لأي طرق باب أحد الفلاحين فلم يجده بالدار، ووعدته زوجة الفلاح أن النقود سوف تصله في الأسبوع القادم! وطرق (سيمون) باب فلاح آخر، فأقسم له هذا أن يديه صفر من المال، وسيدفع له كل ما معه (عشرين كوبك) قيمة إصلاح حذاء قام سيمون برتقه!

فحاول (سيمون) أن يشتري (صوف المدرعة) بما معه، وبقرض

يؤديه بعد حين، فرفض البائع قائلا في صوت ساخر: (إيتني بالمال، وسوف يكون لك ما توده من الصوف، فإنا نعلم كيف يحصل المرء على دينه!)

فأحس سيمون بالخور يسري في جسده، والقنوط يتسرب إلى فؤاده، فقام إلى حانة حيث نهل كأسا من الخمر بعشرين (كوبك)، وقفل راجعا إلى داره!

كان للخمر أثرها في سيمون، فسرى الدفء في عروقه، وزادت من قوته ونشاطه. فراح يفكر: (إني أحس بجوانحي تختلج دفئا وحرارة، مع أني لست مرتديا مدرعة من الصوف، لقد تناولت قطرة من الخمر فكان لها أثر النار تسري حرارتها في عروقي، فلست بحاجة لمدرعة من الصوف أقي بها زمهرير الشتاء!!)

ليت زوجتي ترتشف قليلا من الخمر. فتحس ما أحس!! صه.. . ويلك... أتود أيها الرجل أن تقضي عليك زوجتك إن خبرتها أنك تناولت بعضا من الخمر... إنها سوف تحطم الآنية على رأسك الفاضل..! يا له من سائل عجيب يدفع النشوة إلى الروح والحرارة إلى الجسم!!. لست أبالي شيئا... ولكن زوجتي سوف تكتئب ويؤلمها أني عدت دون صوف المدرعة!. ليس علي من جناح!!... فقد طلبت حقي فأنكره واحد. وأعطاني الآخر عشرين (كوب)... هه... وماذا أنا فاعل بها.؟! لست أدري غير أن أشرب بها... إن الواحد من هؤلاء يملك الأرض والدور والحيوان... ثم يبخل علي بحقي حقي الذي أعمل سحابة يومي وجنحا من ليلي كي أظفر به... فإذا ما انتهيت أنكروه علي يا للعار. إن الواحد منهم لينعم بالدقيق والطعام أما أنا فأنفق ثلاث (روبلات) كل أسبوع للخبز وحده... فإذا ما عدت إلى الدار وجدت الخبز قد أكل فأبيت على الطوى!. وهل أملك غير ذلك؟! ومن أين آتي بالنقود؟! أمن (هؤلاء) الناس الذين لا يقيمون عن الطعام إلا وقد أصيبوا باللظة.!!)

كانت تلك الأفكار والخواطر تضطرب بين جوانحه. حين أدرك - في سيره - الكنيسة في منعطف الطريق. فرأى جسدا كالثلج في نصاعته!. فراح ينعم النظر دون أن يتحققه أيكون ثورا!. لا

ليس شبيها بالثور.! إن له رأسا يشبه رأس لإنسان! بيد أنه ناصع البياض!...)

واقترب منه حتى أمكنه أن يجتلي الأمر!. وكم كانت دهشته حين أدرك أنه إنسان عار... يجلس إزاء الكنيسة في سكون يدفع الرهبة إلى القلب... فطار فؤاده هلعا، وتلبسه الخوف فزعا: (لا بد أن أحدا قد قتله.. وخلفه هنا.. سوف أمسك عليّ فضولي أو أصاب بأذى...)

وأنطلق في سبيله ولكن التفت إلى ما وراءه فرأى الرجل الجالس ينظر إليه... فراع ذلك سيمون وزاد من جزعه. (أأعود إليه أم أنطلق؟! إن أنا عدت إليه فسوف يحدث مالا يرضيني. بل يجلب الضر إلى نفسي فما وجدت ثمت إلا لسوء... ولعله يثب علي ويخنقني. وحينئذ لا تنفعك رحمتك ولا تشفع لك شفقتك... وماذا أنا فاعل بإنسان عار؟!

لست بمستطيع أن أخلع عليه ما لا أملكه. دعه فللسماء شأن معه!) وأسرع سيمون في خطاه لا يلوي على شيء. بيد أن ضميره أخذ يؤنبه. فتوقفت خطاه. وأخذ يهس في حيرة ويهمهم في وجل: (ماذا أنت فاعل يا سيمون؟! هب أن الرجل يلفظ آخر نفسه!. ألا تتقي الله في فرارك منه ورغبتك عن عونه!! أأنت في وفر من المال حتى تخشى أن تسرق؟! يا للعاريا سيمون.!) فانقلب آيبا إلى الرجل ونفسه مضطربة وقلبه يخفق...

دنا سيمون من الرجل الغريب، وراح يجيل الطرف فيه.. فرآه شابا على جمال وحسن! وليس على جسده أثر لجرح أو شج وقد جلس ثم معتمدا ظهره إلى جدار الكنيسة لا يرفع طرفه إلى سيمون من الوهن والضعف. فلما أحس بسيمون رفع رأسه إليه، وألقى إليه بنظرة. كانت كافية لأن تستدر كل ما يختلج بين جوانح سيمون من عطف ورفق وحب. فخلع حذاءه. وألقى عن نفسه رداءه. وقال في صوت خفيض فيه حنان وفيه رأفة: (ليس ثمة مجال للحديث!!. هيا ارتد هذا الثوب.) وأمسك سيمون بمنكبي الرجل، وأعانه على النهوض...

فلما نظر إليه - حينما انتصبت قامته - ألفاه. . . مديد العود. . . جميل الوجه. . . فألقى على كتفيه رداءه وأعانه على لبسه وهم (سيمون) يخلع قبعته ليضعها على رأس الغريب. فأحس برأسه يقشعر من البرد فقال في نفسه: (أني أصلع!. أما هو فله غدائر معقوصة فلا خوف عليه!. بل يحسن أن ألبسه حذائي. . .) فأقر قبعته على (صلعته) وأجلس الرجل. وجعل حذائه في قدميه. . . وهو يقول في جرس طيب عطوف (هيا. أيها الصديق. استشعر الدفاء ودع باقي الأمور تجري وفق مرادها أفي قدرتك أن تسير؟!)

فنهض الرجل ونظر في امتنان إلى سيمون دون أن ينبس ببنت شفه فقال سيمون: (لماذا لا تتكلم؟! أن البرد لقارص فلا بد من العودة إلى المنزل توكأ على عصاي وإلا أحسست بوهن وخوار. فاعتمد على ساعدي. . .)

وخطا الرجل في تعب وجهد. وفي خلال السير رفع سيمون صوته قائلا:

(من أين أنت؟!.)

- لست من هذه البقاع!)

(كذلك حدست. فأني أعرف القوم هنا.! ولكن كيف قدر لك أن تصير هكذا جوار الكنيسة!؟)

(لست أدري!)

- أساء أحد معاملتك؟!

- لم يتعرض لي أحد بسوء؟ لقد عاقبني الله. . .

دون ريب. . . هذا هو حكم الله. سوف تجد عيشا ومأوى أينما ذهبت! فأين تروم!)

- لست أدري!.)

فتولى سيمون الدهش. فما كان الرجل صاحب سوء أو خبث وتجلى من لهجته أنه خالص القلب. ولكنه لا يعلم عنه شيئا. (من يدري ما سوف يحدث!!) والتفت إلى صاحبه وقال: (حسنا!. تعال إلى داري على الرحب والسعة.!)

هبت الريح عاتية، فياضة بالصقيع. فسرت القشعريرة في

openkangi.com

جسد سيمون بعد أن أفاق من نشوة الخمر وذهبت عنه حرارته فأخذ يدثر نفسه برداء زوجته بعد أن خلع رداءه... وراح يتحدث إلى نفسه: -

(ولآن، وقد ذهبت الخمر، أعوزنا صوف المدرعة، لقد انطلقت اليوم كي أعود بالصوف، فما عدت بالصوف ولا بردائي أنا، وفوق ذلك أتيت معي برجل عار! سوف تستاء (مترونا) من ذلك!)

وحينما جالت بفكره (مترونا) زوجته أحس بالانقباض والألم يتغلغل في جوانحه، بيد أنه عندما ذكر صديقه الغريب ونظرته إليه في امتنان وحمد رقص قلبه بهجة ومراحا...

نهضت (مترونا) زوجة سيمون.. . ذلك اليوم بعبء واجبها المنزلي خير نهوض وانتهت من عملها مبكرة.. . قطعت الأخشاب. .. وحملت الماء.. . وأطعمت الصغار.. . وتناولت هي وجبتها.. . وجلست ترقب أوبة زوجها... وراحت تسال نفسها:

(أيكفي الخبز.. . أم عليها أن تعمل بعضا منه الآن.. . لو أن (سيمون) تناول طعامه في المدينة... ولم يكن في حاجة للخبز في العشاء... فسوف يمتد أجل الخبز يوما آخر... لست بقادرة اليوم على أن أصنع خبزا... وسوف أدبر كل شيء حتى يكفينا إلى يوم الجمعة القادم...).. ووضعت مترونا قطعة الخبز الباقية في مكان حريز.. . وجلست ترتق ثياب زوجها.. . وفي غضون ذلك راحت تفكر كيف يشتري زوجها صوف المدرعة كي تقيهما برد الشتاء...

(آه.. . لو أن البائع لا يخدعه.. . أن زوجي لغرّ...! سهل على من يقوده... انه لا يخدع أحدا... ولكن الطفل يستطيع أن يعبث به.. . ثماني روبلات مقدار كاف لشراء أجود الأصواف وأمتنها.. .! كم كنا نرتعد بردا ونرتجف من الصقيع في الشتاء الماضي.. . وما كنت أستطيع أن أهبط النهر أو أذهب إلى مكان آخر ولكن لقد بكر سيمون في الذهاب!! وما عاد إلى الآن.. . آمل أنه لم يذهب إلى الحانة!!.

ما كادت (مترونا) تردد هذه الخواطر في ذهنها.. . حتى طرقت أذنها أصوات وأحست أن بعضهم دلف إلى الدار فقامت تجتلى

الأمر. . . فأبصرت رجليه: سيمون زوجها، وشخصا آخرا. عاري الرأس ينتعل حذاء زوجها!! لم تره من قبل!.)

وحينما لاحظت أن زوجها تفوح منه رائحة الخمر. . . وليس عليه رداءه. . . ولا يمسك بيده حزمة من الصوف. . . أخذ مرجل غضبها يفور. . .

وأفسحت لهما حتى دلفا أمامها، ثم تبعتهما. . . ووقع بصرها على ذلك الرجل الغريب وقد لبس رداء زوجها. . . فلما دخلا الغرفة وقف الرجل الغريب لا يتحرك ولا يرفع بصره إليها. . . فقالت في نفسها (لعل السكر أخرسه وذهب بعقله. . .)

وعبست بوجهها وقطبت جبينها. . . ووقفت جوار (التنور) ترقب ما سوف يعملان. . .!

وخلع (سيمون) قبعته. . . وجلس على أحد المقاعد. . . وكأن الحال يجري على ما يرام.

- (هيا مترونا!! أن كان العشاء معدا؟! فأتبنا به.!) فزمجرت (مترونا) كاللبؤة الغاضبة. . . ولم تتحرك من مكانها جوار التنور - فرأى سيمون بوادر الشر تلوح في وجه زوجته. . . فأراد أن يهدئ من روعها ويظهر أنه لم ير شيئا. . . وقدم لصاحبه كرسيا وقال له في مرح (اجلس ودعنا نصيب شيئا من الطعام. . .! هيا (مترونا) أما أعددت لنا شيئا؟!)

كانت نفس مترونا تلتهب غضبا وتغلي حنقا فانفجرت قائلة:

- (بلى. . . لقد أعددت الطعام. . . ولكن ليس لكما. . .! يخيل لي أنك أنفقت نقودك في الشراب. . . لقد ذهبت كي تحضر صوف المدرعة. . . فما عدت إلا ومعك شريد عار عربيد. . . ليس لدي طعام للسكارى. . .!)

- (كفى مترونا. . . أمسكي عليك لسانك. . .! يحسن بك أن تسألي أي إنسان هذا؟)

- بل يحسن بك أن تخبرني ماذا فعلت بالنقود؟!)

فأخرج (سيمون) الثلاث (روبلات) من جيبه وقال: (ها هي ذي النقود. . لم يؤد (تريفنوف) ما عليه. .! ووعدت زوجته بأنه

سوف يدفع...) فلم يهدئ هذا من غضب مترونا... فهو لم يحضر الصوف... بل أنه ألبس وأحدا عاريا ثوبه وأتى به إلى بيته... فاختطفت النقود من يده لتضعها في مكان أمين وقالت لزوجها. .. (ليس عندي طعام... وما بمقدورنا أن نطعم كل سكير عار في العالم...!)

- قلت كفى مترونا خير لك أن تسمعي أي إنسان هذا -!)

- (أمن الحكمة أن أنصت إلى سكير؟! لقد كنت اعرض عن الزواج بك لهذا..!)

حاول سيمون أن يخبر زوجته أنه لم يشرب إلا بالعشرين (كوبك)... وحاول أن يبصّرها بالحالة التي وجد عليها صاحبه الغريب... بيد أن مترونا كانت تنطق بسرعة هائلة... وتذكره بأشياء مضت منذ عشرين عاما... وراحت تتحدث وتتحدث، وأخيرا أمسكت بسيمون وراحت تصيح:

(أعطني ثوبي... إنه الوحيد الذي أملكه...! وقد أعرته لك كي تحضر صوف المدرعة... ناولنيه أيها الكلب الأجرب... وليعبث بك الشيطان!!.)

فأخذ سيمون يخلعه... ثم ناوله إياها... فألقته على رأسها عمت بالخروج إلا أنها توقفت...! وقد جال في نفسها أن تعرف سر ذلك الرجل الغريب فقالت لسيمون:

لو أنه رجل مهذب لما أعجزه أن يستر نفسه بثوب يشتريه! أيمكنك أن تخبرني أين عثرت (عليه)؟!)

- هذا ما كنت على وشك أن أخبرك إياه... حينما أدركت الكنيسة وأنا في طريق العودة - أبصرته جالسا عاريا يكاد أن يتجمد من البرد والصقيع، فقد بعثني الله إليه قبل أن يقضى عليه الجوع والعرى، فماذا كان علي أن أفعله سوى أن أخلع ثوبي وألبسه إياه وآتي به معي؟ فما كان له من مأوى!! ما الذي يدرينا كم كان يلاقي من العذاب الشديد؟ لا تغضبي يا مترونا، أن هذا ذنب غير مغتفر، واذكري أننا سوف نموت جميعا يوما ما!)

وارتفعت ألفاظ الغضب إلى شفتي (مترونا)، ولكنها ما لبثت أن

obeikandi.com

ماتت قبل أن تلفظها، فقد نظرت إلى الرجل الغريب وهو جالس في سكون ووداعة على مقعده، يداه معقودتان على فخذيه، ورأسه ساقط على صدره، وعيناه مغمضتان، وجبينه مقطب، كان الألم ينهش فؤاده فينعكس على صفحة وجهه!

فصمتت (مترونا) على مضض. . . وقالت سيمون في صوت شاع فيه الرجاء والأمل: ألا تحبين الله يا مترونا؟!.)

فما سمعت (مترونا) هذه الكلمات، وألقت طرفها ثانية إلى (الصاحب الغريب) حتى فاض قلبها إيمانا. . . وراحت الرحمة تدب في نفسها. . . وأخذ الحنان والعطف يهز فؤادها. . .!

فذهبت إلى (التنور) وأتت بالطعام. . . ووضعت قدحا على المائدة وصبت فيه بعض الشراب الساخن ثم أحضرت قطعة الخبز من مخبئها ومعها سكينان وملعقتان. . . وقالت في صوت يفيض عطفا. تفضل فتناول بعض الطعام. . .!

وأدنى سيمون المائدة من صاحبه. وفتت الخبزووضعه في المرق وراحا يأكلان. . وجلست مترونا في جانب من المائدة! ترقب الضيف في نظرات فاحصة. فزاد عطفها عليه ورأفتها به.

وحينئذ أشرق وجه (الغريب) وأضاء. فكأنه البدريرفل في هالة بالسماء. . ورفع عينيه النجلاوين إلى (مترونا) ونظر أليها نظرة وديعة. وافترثغره عن ابتسامة حلوة عذبة. . .

- 2 -

ولم يكادا يفرغان من الطعام، ويقومان عن المائدة. . . حتى أقبلت (مترونا) على (الضيف الغريب). . . تسائله:

- (من أي البلاد أنت؟!) فأجابها في صوت شاعت فيه الوداعة (لست من هذه البقاع!. . .)

فقالت دهشت (ولكن. ما الذي رمى بك إلى الطريق؟)

- (لست أدري.!.)

- (أتعرض أحد لك بسوء؟!.)

- (كلا!... لقد عاقبني الله تعالى!...)

- (أما كنت ملقى على قارعة الطريق؟!...)

- (بلى عرياناً ومثلجاً، وقد لمحني زوجك الكريم (سيمون) فأدركته الرحمة فخلع ما عليه، وألبسني إياه، وأحضرني هنا... فأطعمتني من جوع، وآويتني من برد... وأشفقت عليَ من التشريد والموت... فجزاك الله خيراً).

فنهضت (مترونا) وأحضرت له بعضاً من ثياب زوجها القديمة... وأعدت له مناماً على كثب من التنور يقضي فيه ليلته

باتت (مترونا) في مضجعها تتقلب فلم يزر جفنيها الكرى وما فتئت ذكرى (الغريب) تراود مخيلتها...

بدا لها كيف أتى على نصيبهم الأخير من الخبز... فلم يدع لهم شيئا إلى العند... فأحست بالحزن يساور نفسها... والألم يتغلغل في قلبها... بيد أن تلك البسمة التي رفعها إليها (الضيف الغريب) جالت في صفحة فكرها وجلبت السكينة إلى نفسها وقالت تحدث زوجها في خفوت، وقد كادت أن تأخذه سنة من النوم: -

(سيمون!...) فأجابها في توجس وضيق: (ماذا؟!)

- (لقد أتيتما على آخر ما عندنا من الخبز... ولست أدري ما الذي نفعله غداً!! ليتني أستعير بعضاً من جارتنا (مارثا!...)

- (إذا امتد بنا الأجل إلى الغد... فسوف نرزق من حيث لا ندري!...)

فلبثت المرأة برهة لا تنبس... ثم قالت في رقة (يخيل إلي أنه رجل طيب كريم، ولكن ما الذي يحمله على الصمت فلا يكشف لنا جلية أمره؟!.)

- (أحسب أن لديه علة تمنعه!.)

- (سيمون!.)

- (نعم!.)

- (ما بالنا نعطي! وليس ثمت من يتفضل علينا بعطاء)

فحار سيمون جواباً... ثم لم يلبث أن قال لها: - (دعينا من هذا الحديث!...) وانقلب على جانبه... وراح يغري بعينيه النوم

بعد أن جفاه.!

وفي الغداة... أفاق (سيمون) من نومه، وكانت الأطفال تعبث في البيت صياحاً ولهواً، وانطلقت زوجته لتسأل جارتها بعضاً من الخبز... أما الغريب فكان يجلس على مقعده - في ثياب سيمون الخلقة - يرمي طرفه إلى السماء - وفي عينيه توسل ورجاء، وقد عاد إلى وجهه بهاؤه وضياؤه عن البارحة...

فقال (سيمون) في طلاقة ومرح: (هه!... أيها الصديق... إن السغب يدعو الإنسان إلى السعي وراء القوت، والعرى يضطره إلى طلب الملبس... فعليه أن يعمل ويكد... فما الذي تعرفه من المهن؟!.)

- (لست أدري شيئاً!.)

فقال سيمون في صوت ملئ بالدهش.

- (إن كان للإنسان رغبة في التعلم فسيتعلم؟!)

- (وإن لفي نفسي رغبة إلى ذلك.!)

- (ماذا تدعى؟!...)

- (ميشيل...)

- (حسناً يا ميشيل... إن لم تكن في نفسك ترغبة إلى أن تحدثنا عن نفسك، فهذا من شئونك... غير أنه يجب أن تتكسب رزقك، فإن عملت بما سأشير عليك به.! فسوف تجد عندي طعاماً طيباً، ومأوى حسناً...)

- (جزيت خيراً... وإني لمطيع لما تقول!...)

- (إن ذلك غاية في البساطة... فانظر إلي.) ثم أمسك (سيمون) بخيط، ولفه حول إبهامه وراح يجدله في براعة... فراقبه (ميشيل) ثم أخذ قطعة من الخيط وثناها على إبهامه وانفك يجدلها كما فعل سيمون وفي براعته وإجادته، وعلمه سيمون كيف يشمع الخيط ويقطع الجلد ثم يخيطه... فبرع (ميشيل) في كل ذلك... حتى أصبح ماهر البنان كأنه مارس تلك الحرفة طيلة حياته...

كان لا يبرح يعمل ويعمل دون توقف، ولا يطعم غير القليل، حتى إذا ما انتهى من عمله، جلس صامتاً يحدق في سماء الغرفة وفي

عينيه ذلك الرجاء وذلك التوسل... ولم يكن يخرج إلى الطريق، بل يظل حبيس الدار، رهين العمل، لا ينطق إلا بكلمات قلائل يضطر إليها... وما ضحك يوماً، وما ارتفع لسانه بفكاهة... ولم ترتسم على وجهه ابتسامة أبداً، إلا تلك التي أضاءت على جبينه يوم أن قدمت إليه (مترونا) العشاء...!

وتتابعت الأيام وتعاقبت الشهور... وميشيل يعيش ويعمل جهده مع (سيمون)... وجرى اسمه على كل لسان، وطبقت شهرته في كل مكان... حتى طفق الناس يأتونه من كل صوب وفج يعاملونه... حتى ازدهر حاله. وزال عنه بؤس الحياة وعسرها.

كان (سيمون) وميشيل يعملان ذات يوم حينما جلجلت بباب دارهم الأجراس فأسرع كل منهما إلى النافذة، يستجلي الأمر... فأبصر بعربة (زلاقة على الثلج) يجرها ثلاثة من الجياد المطهمة الصافنة... تقف بباب الدار، وخف تابع إلى بابها ففتحه... فظهر منه سيد جليل مهيب - عليه جبة من الفرو الثمين - ووقف بباب الكوخ، فسارعت (مترونا) إليه تفتحه على مصراعيه، وترحب بمقدم الضيف الجليل فطأطأ الرجل رأسه عند ولوجه الباب... فلما انتصبت قامته الممشوقة كاد أن يمس رأسه سقف الغرفة فنهض سيمون وانحنى إجلالاً للضيف وقد سرى إلى نفسه الدهش... فما رأى مثل هذا الرجل في عظمته ورفاهيته فقد كان سيمون هزيلا نحيفا، وميشيل صدعا رفيعاً... كما أن (مترونا) كانت ضاوية الجسد جافة العود...

أما هذا السيد، فيخيل لمن يراه أنه من عالم آخر وجنات مكتظة مليئة... ووجه مطهم شاعت فيه الحمرة الوردية، وجسد زهم كالفيل في هيئته وبدانته، وعنق أقمد كعنق الثور وما أن جلس على المقعد حتى قال (من منكم صاحب العمل؟!) فدنا منه سيمون وقال في صوت أصحل من الرهبة (أنا يا صاحب السعادة!!)

فصاح السيد بتابعه (هيا... أحضر الجلد... يا (فدكا) فلما أحضره، ووضعه على المائدة... قال السيد مشير إليه: - (أنظر أيها

(الأسكاف) أترى هذا الجلد؟.)
- (أجل يا صاحب السعادة... إنه أثمن جلد رأيته في حياتي!.)
- (أبمقدورك أن تصنع لي حذاء منه؟!)
- (أجل يا صاحب السعادة!.
- (أتستطيع!؟ حسناً... فلا يغب عن بالك لمن سوف تصنع هذا الجلد الثمين... أستمع... ينبغي أن تجعل لي منه حذاء أحتذيه عاماً كاملا... لا يبلى ولا يخلق. أفهمت إن لم يكن بمقدورك هذا، فصارحني... فإني أود حذاء أحتذيه عاما بأكمله... وإني لأحذرك الآن وإلا فسوف يكون مستقرك السجن وإذا لم يبل في مدى عام.. فسوف أمنحك عشر روبلات نظير ذلك...)

فارتعدت فرائص (سيمون) وعجز عن الكلام... والتفت إلى (ميشيل) ووكزه قائلاً في همس وحسيس (أنأخذ هذا العمل على عاتقنا؟!) فأومأ (ميشيل) برأسه موافقاً.. فانفرجت أسارير (سيمون) وسرى عنه همه وجزعه... وراح يقيس قدم السيد... يتعرف عسيبها ويقدر أخمصها... ويسجل ذلك على وريقة تعنيه على صنع الحذاء... فلما انتهى من ذلك قال له السيد وهو يجول طرفه في أرجاء الكوخ.

- (لا تجعلها تضيق بقدمي!.)... فلما وقع طرفه على (ميشيل) قال في تساؤل:
- (من هذا؟!)
- (إنه عامل عندي... وسوف يتشرف بخياطة حذاءك)

فتحدث السيد الجليل إلى ميشيل قائلا (أنت يا ذا... لا يغيب عن بالك أني أود حذاء مريحاً... يمكث عندي سنة... هه... سنة بأكملها!.)

نظر (سيمون) إلى (ميشيل)... وكان هذا يحدق في ركن الغرفة فوق السيد... وقد شرد خياله عما هم فيه...

. وكان يحدق... ويحدق، وعلى غرة ارتسمت على ثغره تلك الابتسامة العذبة، وأشرق وجهه وأضاء... فزمجر السيد قائلا:
- (فيم تحملق أيها الأبله؟! خير لك أن تنظر إلى ما يدر عليك

رزقك!.)

فقال سيمون (سيعد لك الحذاء يا صاحب السعادة. . . في الحال. . .) فنهض السيد وهم بالخروج والغضب يحمر في عينيه، واستقر في عربته فانطلقت تجلجل أجراسها. . . فلما اختفت في منعطف الطريق. . . قال سيمون - وما زال الدهش يسيطر على نفسه - (هذا مثال لإنسان جبار. . . لا يقتله المرؤ ولو بمطرقة. . . وأحسب الموت يتخوف من جبروته. . . فلا يمس له جسداً!.) ثم حدث ميشيل قائلاً:

(حسناً لقد أخذنا على عاتقنا أن نصنع حذاء له. . . ولكن ينبغي ألا يكون ذلك سبباً في متاعب جديدة. . إن الجلد لثمين وإن صاحبه لجاد في طبعه. . . فيجب ألا نخطئ معه هيا. . . يا ميشيل، إن عينيك أدق من عيني، ويديك أبرع من يدي، فهاك الجلد، فقطعه حسب المقياس. . . وسوف أخيطه أنا!.)

فبسط (ميشيل الجلد على المقطع ثم طواه طية واحدة. . . وراح يقطعه بالأزميل. . .

كانت (مترونا) ترقبه في عجب ودهش. . . فقد طالما كيف تحذي النعال وأدركت أن (ميشيل) لا يقطع الجلد على طريقة الأحذية. . . بل لشئ آخر لا تعرفه هي، فقالت في نفسها (لعلي لا أعرف شيئاً عن صناعة الأحذية للسادة والأشراف!. وأحسب أن ميشيل يعرف المزيد عنها. . . سوف لا أتطفل عليه!.)

فلما فرغ ميشيل من القطع. . . أمسك بخيط واحد وراح يخيط الجلد - كأنه من الخفاف - لا بخيطين كما تخيط الأحذية فعاد الدهش إلى (مترونا) من جديد. . . غير أنها أمسكت عن تدخلها. . .

ومكث ميشيل يعمل حتى وافت الظهيرة. . . وقام سيمون يلقي نظره إلى ما أتمه ميشيل. .

فلم يلبث أن راعه ذلك وقال في أحيح وعجب: (آه!. كيف تفعل هذا يا ميشيل؟! لقد لبثت معي سنة بأكملها - لم تأت أثناءها بخطأ قط فكيف تقع في هذه الغلطة التي ستوردنا مورد الهلاك!. لقد قال إلينا السيد أنه يود حذاءاً. وها أنت قد جعلت له من جلده

الثمين خفاً. . . سوف يثير حنقه علينا. . . وما في قدرتنا أن نأتي بجلد مثله. . . لقد حطمت حياتي يا ميشيل!.)

فما وفيما هو يعلك ألفاظاً من التوبيخ والعتاب. . . حتى سمعوا طرقاً على الباب وأبصروا من النافذة رجلاً يترجل عن جواده ويربطه في حلقة الباب. . . ففتحت له (مترونا). . . وكان ذلك الرجل هو التابع الذي صحب (السيد الجليل) في الصباح. . . فقال لهم: (لقد بعثت بي سيدتي في أمر الحذاء!.) فقال سيمون في جذع:

- (ماذا عن الحذاء؟!)

(إن سيدي ليس في حاجة إليه!. فقد مات.!)

- (هه!. أحقاً هذا؟!)

- أجل. . . لقد دهمه الموت وهو في مركبته!. فلما بلغنا المنزل. . . جاء الخدم يعاونونه. . . فقد حرجت جثته على الأرض كالكيس الممتلئ. . . وقد بعثت بي سيدتي لأقول لكم إن السيد الذي أتاكم هذا الصباح ليس بحاجة إلى الحذاء. . . بل ينبغي أن تعجلوا بعمل خف لجثته. . . كي أحمله إليها الآن.)

فقام ميشيل. . . وضم بقايا الجلد إلى الخف بعد أن مسحه بمئزرته وسلمه إلى الخادم الذي انطلق به قائلا: (وداعاً أيها السادة!. . .)

كرت السنون. . . وها هو ذا ميشيل يعيش عامه السادس مع سيمون وعائلته لم يتحول عما درج عليه. . . ولم يتغير شئ من طبعه. . . لا يخرج أبداً من الدار. . . ولا يتحدث إلا بمقدار ولم يرتسم الابتسامة على شفتيه إلا مرتين لا تثلثهما أخرى. . .

واحدة حينما تفضلت عليه (مترونا) بالطعام. . . والثانية حينما كان يحدق في ركن من الغرفة فوق (السيد الجليل) وكان سيمون على وفاق مع عامله. ولم يسأله يوماً من أين أتى بل كان في خشية من أن يرحل ميشيل عنه. . .

وبينما هم جميعاً في الدار ذات يوم. . . وكانت (مترونا) تضع إناء على النار، والصغار يمرحون في لهوٍ وعبث، وسيمون جالس يخيط حذاء في يده. . . أما ميشيل مستغرقاً في عمله على كثب من

obeikandl.com

النافذة. . .

ووضع أحد الأطفال يده على كتف ميشيل. ونظر من النافذة وصاح قائلاً:

(أنظر. . . يا عم ميشيل، هناك سيدة معها بنتان صغيرتان يظهر أنها تريد دارنا إن واحدة من البنات تعرج في سيرها!) فألقى ميشيل بما معه وسارع ينظر من النافذة إلى الطريق. . . فتعجب سيمون، فما رأى (ميشيل) ينظر يوماً إلى الطريق في هذه اللهفة. . . فدعا ذلك سيمون إلى أن ينظر هو أيضاً كي يستبين ذلك الشيء الذي أثار ميشيل. فرأى سيدة حسنة الهندام تتجه حقاً إليهم وتقود طفلتين عليهما أردية من الصوف وشمائل من الفرو. . . يعجز المرء عن أن يميز إحداهما عن الأخرى إلا تلك التي يعتري ساقها اليسرى شئ من العرج.

وولجت السيدة بطفلتيها الغرفة. . . وقالت في صوت رقيق

- (سعدتم صباحاً. . . أيها القوم الطيبون؟!)

فقال (سيمون):

- (سعدتي صباحاً. . . سيدتي الفاضلة. . . ماذا في مقدورنا أن نعمله لك؟!)

فجلست السيدة على مقعد. . . وقد التصقت بها الطفلتان في خوف ممن في الكوخ.

- (أود. . . حذاءين من الجلد لهاتين الطفلتين، للربيع!. . .)

- (إننا لم نصنع من قبل مثل هذه الأحذية الصغيرة. . . غير أننا قادرون على ذلك. . . إن مساعدي (ميشيل) أستاذ صناع في هذا!.)

وألقى سيمون بنظره إلى ميشيل. . . ليرى أثر الإطراء والثناء عليه. . . فوجد هذا جالساً يحدق في الطفلتين الصغيرتين فانتاب سيمون العجب وتولاه الدهش. . . حقاً كانت الطفلتان جميلتين لهما وجنتان وردية وشعر معقوص وعيون نجل. . . ترتدي كلتاهما ثياباً فاخرة من الصوف والفراء. . . بيد أن سيمون لم يفطن إلى سر تحديق ميشيل إليهما كأنه يعرفهما من قبل!

كان في حيرة من أمره. . . فانطلق يحدث السيدة ويقدر الثمن

openkandil.com

معها. . وبعد مساومة وإقرار. . . هم أن يأخذ مقياسهما فقالت السيدة وهي ترفع قدماً للبنت العرجاء (إن هذه القدم عرجاء فاعمل لها حذاء على حدة. . . أما القدم الأخرى وقدمي الطفلة الثانية. . . فهي صحيحة متشابهة وحجمها واحد. . . إنهما توأمتان.)

فسجل سيمون ما قاسه على وريقة صفراء. . . وقال يحدث السيدة: -

- (ما الذي حدث لها؟! فأصابها بهذا العرج. . . إنها تبدو جميلة. . . أو ولدت هكذا؟!)

- (كلا. . . فلقد حصرت أمها قدمها فالتوى. . .)

فتعجبت (مترونا) وتساءلت من تكون هذه السيدة؟! ومن تكون هاتان الطفلتان. . . فقالت في صوت شاع فيه ما يجول في نفسها من دهش.

- (الست أمها إذن؟!)

- (كلا. . . يا سيدتي الفاضلة. . . لست أمها، ولست إحدى قريباتهما. . . لقد تبنيتهما. . .)

فزاد عجب (مترونا) وهي تقول:

- (ليستا طفلتيك. . . وتحبينهما هذا الحب؟!)

- (ليس لي حيلة في ذلك؟! أطعمهما وأربيهما. . . ولقد رزقني الله ولداً ولكنني احتسبته. . . وما كنت أحسبه مثل حبي هاتين الطفلتين!

وطفرت من عينها دمعة حارة. . . تألقت في مقلتها. . . ثم لم تلبث أن انحدرت على وجنها. . . فمسحتها في هدوء وحزن فقالت مترونا في أسف وتأثر: -

- (معذرة. . . ما كنت أحسب أن هذا يجلب إلى نفسك الحزن والألم. . . ولكن من هي أم هاتين الطفلتين؟.)

- 3 -

طفقت المرأة تحدثهم بقصة هاتين الطفلتين. . . وقد شاع

obeikandl.com

الحزن في صوتها، وأرتسم الألم على جبينها فقالت:) إنها لقصة فاجعة. . .! لقد قضى أبوهما يوم الثلاثاء، ولحقت به أمهما يوم الجمعة بعد أن وضعهما. . . وكنت أنا وزوجي نعيش ككل الفلاحين في بساطة عيش ودقة حال، وكانت دارنا مجاورة لدارهم. لقد مات أبوهما وكان يقطع الأخشاب في الغابة تحت جذع شجرة هوت عليه من حالق، فسمعته وفاضت روحه قبل أن يبلغوا به الدار.

وبعد ثلاثة أيام. وضعت زوجته هذين التوأمتين - ولم يكن لها من ناصر أو معين فوضعتهما وحيدة. . . ولقيت منيتها وحيدة..! وفي اليوم التالي توجهت إليها، أنظر ما آلت إليه حالها. . . فما كدت أتخطى الكوخ، حتى وجدتها متيبسة الجسد وقد علت وجهها صفرة الموت. . . وتدحرج جسدها فوق هذه الطفلة، فأصاب ساقها العرج. . .!

وجاء القوم من القرية - وكلهم حزين، يأكل قلبه الألم - فكفنوها في خال وحملوها إلى المقبرة، ودفنوها جوار زوجها. . . لقد كانت الطيبة تملأ نفوسهم والعطف يفيض من قلوبهم. . .! ولكن هاتين الطفلتين أصبحتا ومالهما من ولي أو كفيل. . . وكنت حينئذ المرأة الوحيدة في القرية التي عندها طفل لم يتجاوز أسبوعه التاسع. . . فضممتها إلى صدري. . . وعدت بهما إلى كوخي. فلما اجتمع الفلاحون راحوا يفكرون ويطيلون التفكير في أمرهما، وأخيراً، قالوا لي: عليك العناية بهما الآن يا ماري. . . وسوف ندبر أمرهما فيما بعد. . .!)

فأخذت على عاتقي أن أرضع هذه الطفلة الصحيحة، وأدع العرجاء. . . فما كنت أحسب أنها ستعيش. ولكني تساءلت: بأي ذنب تعاني هذه الطفلة ألم الجوع؟! فما لبثت الرحمة أن فاضت بين جوانحي. . . فرحت أرضهما مع طفلي. . . وقد كنت لبانة يتفجر اللبن من ثديي في فيض لا ينقطع، وكان الله يأتيني برزق هاتين الطفلتين. . . فترعرعتا على حين توفى الله طفلي الوحيد، قبل أن يبلغ السنتين. . . وقد أقبلت علينا الدنيا بعد انصرافها عنا. . . فزاد حبي لهما وحناني عليهما. . .

أفعلمتم الآن سبب ذلك الحب؟! إنهما سعادتي في هذه الحياة، وأملي في هذه الدنيا. . .!) وضمت (السيدة) الطفلة العرجاء إلى صدرها بإحدى يديها، بينما ارتفعت يدها الأخرى لتمسح دمعة حارة تحدرت على خدها فتنهدت (مترونا). . . وقالت في صوت عميق وجرس ندي: (صدق من قال) يعيش المرؤ بغيروالديه! ولكن لا يعيش بغير الله. . .!)

وران الصمت عليهم. . .! وفجأة انبثق في الكوخ نور باهر كأنه وميض البرق في ظلمات الشتاء. . . وشع الضوء من ذلك الركن الذي يجلس فيه (ميشيل). . . فالتقت عنده أبصارهم. وهو على كرسيه يحدق في سماء الغرفة. وقد افتر ثغره من ابتسامة حلوة. . . أشرقت في وجهة وأضاءت على جبينه. . .

فلما تهيأت المرأة للذهاب. حيتهم. . . وأمسكت بطفلتيها. ومضت بهما. . . فنهض (ميشيل) من جلسته. . . ووضع ما كان بيده وخلع عنه مئزره. . . ثم انحنى لسيمون وزوجته (مترونا) وقال في صوت شكور (وداعاً. . . أيها السادة. . . لقد عفى الله عني. . .! وغفر لي ذنبي. . .)

وراح ميشيل يتألق في ضياء تنبعث من هالة حوله. . . فانحنى سيمون وقال في صوت ملؤه العجب (لقد حدست إنك لست ببشر يا ميشيل. . . ولن أثقل عليك بتساؤلي. . . ولكن آمل أن تخبرني: لماذا تألق وجهك حينما عثرت عليك في الطريق عريان جائعاً؟! ولماذا ابتسمت إلى زوجتي تلك الابتسامة الوضيئة حينما قدمت إليك الطعام؟! وحينما دخل ذلك (السيد الجليل) كوخنا، لنصنع له حذاء إفتر ثغرك عن بسمة مثيلة بها؟. وأخيراً حينما أتت هذه السيدة مع هاتين الطفلتين تألق وجهك بابتسامة ثالثة في جلال وبهاء. . .

نشدتك الله يا ميشيل أن تطلعني على سر ذلك الإشراق، وعلة هذه الابتسامات الثلاث؟!!). . .

قال ميشيل في صوت هادئ رخيم (لقد انبثق الضوء عني وأشرق النور مني لأن الله يعاقبني. . . بيد أنه عزوجل غفر لي ذنبي

أخيراً!... والسر في تلك الابتسامات الثلاث أن الله أرسلني كي أتعلم ثلاث حقائق... وقد تعلمتها...!

لقد تعلمت واحدة حينما فاضت الرحمة من قلب زوجتك... فكانت الابتسامة الأولى!!

وتعلمت الثانية حينما سمعت ذلك (السيد) يتحدث عن حذائه، فكانت الابتسامة الثانية!!

وتعلمت الثالثة عندما رأيت هاتين الطفلتين. . . فكانت الابتسامة الثالثة!)

فقال سيمون في دهش ورجاء (خبرني لماذا عاقبك الله يا ميشيل؟! وما هذه الحقائق الثلاث؟!

فأجاب ميشيل في صوته الهادئ الرخيم (لقد عاقبني الله لأني عصيت له أمراً. . . لقد كنت. . . ملاكا أسبح في ملكوته الأعظم. . . فأنزلني ذات يوم إلى الأرض لأقبض روح امرأة من خلقه. . . فأبصرها راقدة على سريرها وحيدة - وقد وضعت توأمين! - فلما أحست دنوي منها، أدركت أني رسول الله إلى روحها... فقالت وقد كادت أن تحبس صوتها الدموع: (أيها الملاك. . . لقد مات زوجي منذ أيام وما لي من أخت أو عمة أو ولية ترعى طفلتي... فلا تقبض روحي! ودعني أرضعهما وأرعاهما حتى تستويا على سوقهما قبل أن أموت!! إن الأطفال لا تحتمل العيش دون أب أو أم!.)

فأصغيت إلى حديثها الرقيق الرفيق. . . ووضعت إحدى الطفلتين على صدرها والأخرى على ذراعها. . . وانثنيت آيباً إلى الله تعالى في السماء... وقلت في خشوع (إني عاجز عن أن أقبض روح هذه الأم. . . لقد قتل زوجها تحت جذع شجرة منذ أيام. . . وولدت لها اليوم توأمتان. . . وتوسلت إلى ألا أسلّ روحها قائلة (دعني أرضعها وأرعاهما حتى تستويا على سوقهما قبل أن أموت! إن الأطفال لا تحتمل العيش دون أب أو أم.!) (فعدت ويدي عاطلة من روحها!.) فسمعت الصوت العلوي يردد الأمر الجليل (اذهب. . . فاقبضها ولا تكن عودتك إلى السماء قبل تتعلم حقائق ثلاث):

(ما الذي فطر عليه الإنسان؟!)

obeikandl.com

(ما الذي حرم منه الإنسان؟!)
(ما الذي يعيش به الإنسان؟!)

فعدت طائراً إلى الأرض - وأنا أرتعد فرقاً من غضب الله وأنتفض جزعاً من عقابه.

فقبضت الروح. . . وسقطت الطفلتان من على صدرها، ومال جسدها على جانبها، فحطم ساق إحدى الطفلتين فالتوت. . . وهممت بأن أصعد إلى السماء أحمل الروح إليها. ولكن الريح أثقلتني وأخذت أجنحتي تتضاءل وتنسل من ظهري. . . فصعدت (الروح) وحدها إلى الله. . . بينما سقطت أنا على الأرض في جانب من الطريق!.)

فغر سيمون فاه. . . ونظرت (مترونا) في بلاهة يشوبها الدهش. . . لقد أدركا الآن من كان يضمه دارهم ويعيش بينهم ويأكل من طعامهم. . . فترقرقت الدموع في عيونهما. . . وراحا يبكيان في نشيج ومزيج من الرهبة والمرح. والإجلال والفرح وانطلق الملاك يقول: (لم أكن أعرف حاجات البشر من جوع وعرى حتى صرت بشراً مثلهم. . . كنت وحيداً. . . يهرؤني القر، واتضور من الجوع. . . ولا أدري ما الذي أفعله في هذا العالم

وامتد طرفي. . . فلمحت كنيسة على مرماه. . فتوجهت إليها عساني أجد ثمت موئلا. . . بيد أنها كانت مغلقة. . . فتوجهت إلى ما وراءها. . . حيث قعدت أتوقى بها لريح الصرصر التي تسفح الوجه، وتصك الجسد. . .!

فلما غشى المساء عيون الكون. . . رأيت إنساناً يقبل وحيداً على. . . وبينه وبين نفسه حديث. . . ولأول مرة رأيت وجه الإنسان ذلك الوجه المخيف الميت فأشحت عنه برأسي. . . وطرق سمعي ذلك الحديث أو تلك الخواطر التي كانت تضطرب بينه وبين نفسه. . . وتنعكس على شفتيه فيرتفع بها صوته. . . كان يتساءل كيف أنه يقي جسده لفحة البرد وقشعريرة الشتاء، ويغذي زوجته وصغاره بماله اليسير. . .

فرمت أفكر (هذا إنسان يدبر ملبساً له في الشتاء. . . وطعاماً

obeikandi.com

لعائلة... فكيف يقدم لي يد المساعدة؟!) فلما لمحني اضطرب فرقاً وجزعاً ومر بي في الجانب الآخر من الطريق... فتداركني اليأس، لولا أني أبصرته ينقلب راجعاً إلي... فرفعت إليه بصري فلم أعرفه... لقد كان يرتسم الموت على جبينه... أما الآن فسوف يعيش... لقد عرفت في شخصه وجود الله عز وجل.! ألبسني ثوباً عليه، وأخذني معه إلى داره حيث وجدت من هي أقسى قلباً وأشد كلاماً... لقد شاع في صوتها الموت، وأبصرت من حولها الهلاك... كانت تود لو ألقت بي إلى قارعة الطريق... ولو أنها فعلت ذلك لكان الموت من نصيبها.!

فلما بدأ الرجل يحدثها عن الله عز وجل، لان قلبها ومال إلى فؤادها. . . فأحضرت لي الطعام، ونظرت إلى وجهي في عطف وشفقة... فعرفت في شخصها وجود الله...

فتذكرت أولى الحقائق الثلاث التي أمرني الله بأن أعلمها (ما الذي فطر عليه الإنسان؟!.).

فأدركت أن الذي فطر عليه الإنسان هو (الحب)!! وقد تولتني البهجة حينما علمت أن الله أوحى إليَّ بالدرس الأول. . . فافتر ثغري عن الابتسامة الأولى... ولكن بقي على أن أتعلم الحقيقتين الأخرتين: (ما الذي حرم منه الإنسان؟!) و (ما الذي يعيش به الإنسان؟!).

(مضى عام وأنا أعيش بينكم. . فلما أتى ذلك السيد الجليل يأمرنا بصنع حذاء له على ألا يبلى أو يخلق قبل أن تنقضي سنة على ذلك... نظرت إليه... وعلى حين غرة لمحت فوق رأسه رفيقي (ملاك الموت) ولم يره أحد سواي. . . ولكني عرفته، وأدركت أن الشمس لن تغيب عن الأفق إلا وقد غابت روح ذلك الرجل عن جسده... فتعجبت... إن هذه الرجل يعد العدة لعام بأكمله... ولا يحسب أن قضاءه قد حم... وأن المساء لن يأتي عليه إلا وجثته مسجاة هامدة...).

فتذكرت الحقيقة الثانية، فكأن الله يوحي إلى أن تعلم (ما الذي حرم منه الإنسان؟) فابتسمت للمرة الثانية...

ومكثت أنتظر أن يوحي إلى الله بالحقيقة الثالثة (ما الذي يعيش به الإنسان؟!).

وفي العام السادس. جاءت امرأة ومعها توأمتان صغيرتان فعرفت الطفلتين وعرفت أن الله قد قيض لهما من كان أحن عليهما من أمهما... فعاشتا وترعرعتا.!

ولما سمعت ما قصته علينا من كفلتهما رحت أفكر مستغرقاً (لقد توسلت إلى أن أدعها حية حتى ترعى الطفلتين... الضعيفتين. . واعتقدت أنها على حق حينما قالت (إن الأطفال لا تحتمل العيش دون أب أو أم...) بيد أن امرأة غريبة عنهما كفلتهما حتى نمتا وشبتا. . . وأدركت مبلغ ذلك الحب الذي يختلج بين جوانح بين تلك الظئر الحاضنة. . . فرأيت في شخصها وجود الله. . . وتعلمت الحقيقة الثالثة وهي (ما الذي يعيش به الإنسان؟!). . . إنه (الحب). . . وعلمت أن الله أوحى إلي بالدرس الأخير. . . وأنه عفى عما تقدم ذنبي ومن عصيان أمره على غير بصيره. . . فكانت الابتسامة الثالثة!!.)

أضحى (الملاك) وهوَ عار مما عليه... يشع من جسه نور قوي يبهر الأبصار...

وراح صوته يخفت وينخفض حتى صار، وكأنه لا يأتي من فيه. . . بل يأتي... من السماء.. .!

(لقد علمت أن البشر لا يعيشون بالحرص على حياتهم... بل بالحب المغروس في قلوبهم وهل نفع حرص الأم على بنيتها؟! لا بل كان حب الظئر لهما!!.

ولقد عشت - عندما كنت إنساناً - لا بالحرص على حياتي... بل بالحب يختلج بين جوانح عابر سبيل... وبالرحمة والعطف الذي انبثق في فؤاده هو وزوجته على...

إن الحب شيء فطر عليه الإنسان وغرس في قلبه. . . وعليه يعيش وبه يحيا في هذه الدنيا. . .! وكنت احسب أن الله وهب الحياة للبشر، ومنحه الأمل في أن يعيش. . . بيد أني الآن علمت أشياء أخرى. . .! علمت أن الله لم يخلفه كي يعيش وحيداً فريداً.

بل خلقه ألوفاً ساعياً للارتباط بغيره... عرفت أن المرأ مع تخيله أنه يعيش بالحرص على حياته... فهو يعيش في الحقيقة بالحب.. لأن من كان الحب يملأ قلبه... فهو يعيش في الحقيقة بالحب.. لأن من كان الحب يملأ قلبه... ففيه نفحة من الله... فالله عز وجل هو الحب... والحب هو الله!!...)

ثم ارتفع صوت (الملاك) في جرس ندي يردد أنشودة ملائكية يحمد فيها الله ويثني على آلائه!! فكان الكوخ والأشجار والطيور تتراقص وتهتزوكأنها تسبح بآيات الله... وانحسر سقف الكوخ حيث ارتفع عمود من النور يربط السماء بالأرض. . . فخر (سيمون) وزوجته وأطفاله وقد ملكت نفوسهم الرهبة والخشوع، وملأت قلوبهم الخشية والإجلال!. ونبت (للملاك) جناحان على كتفيه... حيث راح يسبح بهما مصعداً إلى السماء...!

فلما أفاق (سيمون)... وراح يقلب طرفه فيما حوله... رأى الكوخ وقد أصبح كما كان. . وليس فيه سوى زوجته (مترونا) وأطفاله الصغار...

obeikandl.com

الحُمَّى ...

أنطون تشيكوف

كان القطار ينساب بين الربوع في سرعة وفي صخب، بعد أن خلف وراءه (بتروغراد) وغايته (موسكو)!. . . وفي إحدى عرباته جلس الضابط (كليموف) وهو شاب تجلت على سيمائه آيات العناء والألم!.

وكان رفيقه - الذي قعد مواجهاً له - رجلاً طاعناً في السن!. حليق الذقن. . . تلوح عليه دلائل الثراء والعيش الرغد. ويخيل إلى المرء أنه من أبناء (فينلندا) أو (السويد). . . لم يبرح طيلة السفرة. . . يدخن (غليونه)، وينفث هباءه في الهواء!. . . وكان ثرثاراً مهذاراً، نهماً إلى الحديث، شرهاً إلى الكلام. . . لا يفتأ يلفظ بهذره حول معنى واحد. . . دون تنويع ولا تبديل!. . .

- (ها!. إنك ضابط!. كذلك لي أخ ضابط؛ بيد أنه نوبي يجوب البحار!. . ألا خبرني ما الداعي لذهابك إلى (موسكو)؟!.)

- (إن لي مقاماً هنالك!!.)

- (ها!! أما تزوجت بعد؟!)

- (كلا. . . إني أعيش مع خالتي وأختي!.)

(إن أخي ضابط كذلك، غير أنه متزوج. . . وقد أنجبت له امرأته ثلاثة أطفال. . . ها!!.)

وكان الرجل الفنلندي ينظر - خلال ذلك - في بلاهة وغرابة. . . وتترسم على شفتيه ابتسامة تعبر عما يختلج في نفسه من جزل ومرح، حينما يهتف: (ها!!.)

أما كليموف - وكان يشعر بدوار وصداع في رأسه، ويحس بفتور ودعث في جسده - فقد برم بالجواب على أسئلته. . . وراح يحمل عليه في قلبه إصراً وبغضاً!. . . وتراود نفسه رغبة جامحة في أن

يختطف غليونه... ويلقي به تحت المقعد، ويأمر (الفنلندي) نفسه بالبحث عن عربة أخرى.!

وقال يحدث نفسه - وقد ضاق به ذرعاً (ما أفظع أولئك (الفنلندين) وأبغضهم إلى النفس!. إنهم أوغاد مذقو الخلق، أولو خسة وذوو سفه... لا يأتون إلا كل تافه غير محمود من الأفعال. .. وما خلقوا إلا ليعوقوا العالم فحسب!. فما أدري مكرمة ذاعت لهم، ولا حسنة أثرت عنهم!.).

وزاد إحساس الضباط الشاب بما يكتنفه من وعك وكآبة وألم!. فعلا وجهه شحوب وامتقاع... وسرى الجفاف والظمأ إلى حلقه فلذغه لذعاً شديداً، وضاقت رأسه - وقد ثقلت تحت وطأة الصداع - بما يضطرب فيها من أفكار سوداء تجول بخاطر معربدة صاخبة على غير هدى... ثم لا تلبث أن تفيض على ما حوله من مقاعد وأناس يلوحون في حلكة
الظلام!...

ويطرق سمعه - في عنف - خليط من الهرج والمهرج... يترامى إليه من بلبلة الأصوات وضوضاء العجلات، وصفق الأبواب وهدير الأجراس وصفير القطار وضجيج الناس وعجيجهم في كل محط يقف به!.

وكان الزمن يمضي متباطئاً على مهل حيناً، وسريعاً على عجل حيناً آخراً... ولاح لكليموف وكأن القطار يقف كل دقيقة في محطة!. وتمر به القطارات الأخرى سراعاً يلاحق بعضها بعضاً بينما قطاره يتهادى في سيره ويدوي ويجلجل!...

إن مسمع تلك الجلبة وذلك الصفير. . ومرأى هذا الفنلندي وهذه الحلقات من الدخان ينفثها من غليونه في الهواء... كل ذلك تمازج مع الكآبة السوداء التي تعتديه في إيهام. وتمخض عنه كابوس مخيف يجثم على صدره، ويكاد أن يزهق أنفاسه!.

وبينا هو في غمرة ذلك العذاب الأليم، ورفع رأسه المصدع ونظر من خلال عينيه الذابلتين... إلى المصباح!. وقد راح يرسل ضوءاً واهناً متراقصاً لا يثبت على شيء. . ويعقد الظلال، ويشيع

openkanal.com

جواً من الرهبة والغموض!!

وود (كليموف) لو يرفع صوته بطلب شربة ماء... ولكن لسانه جمد... فقد يبس ريقه وجف حلقه من حرقة الصدى!. كما أن قوته وهت عن أن تجيب (الفنلندي) إلى ما يسأله إياه، وتستمع إلى ما يهذي به.

فحاول أن يمدد جسده على المقعد حتى تداعب عينه سنة من النوم... ولكن النوم أبى عليه أن يأخذ بمعاقد أجفانه. وظلت تلك الكآبة القاتمة والخواطر السوداء والصور الغريبة تعبث به وتعيث من حوله... في حين أن ذلك (الفنلندي) نام ملأ جفونه ما حلا له النوم، وعلا شخيره؟. ثم أفاق من نومه وأشعل غليونه وطفق يحدثه ويردد (ها!!.) ثم لم يلبث أن غط في النوم من جديد! وتحامل (كليموف) على نفسه في (سبيروف)! ونهض يسعى في طلب الماء!. فامتد طرفه إلى فريق من الناس يجلسون إلى مائدة حافلة بالطعام، ويأكلون في شراهة وعجلة... فتمتم وهو يحاول أن ينأى بأنفه عن رائحة الشواء ويشيح بوجهه عن مرأى أولئك القوم وهم يلوكون الطعام في أفواههم المكتظة: (كيف يأكلون؟!)

ثم لمح بعد ذلك امرأة وضيئة تتحدث إلى رجل عسكري يضع على هامته قلنسوة حمراء.

وتبتسم له، فيفتر ثغرها عن أسنان كالدر المنظوم... ولكن أثارت تلك الابتسامات وتلك الأسنان اللؤلؤية وتلك السيدة الوضيئة ذاتها عاصفة من السخط والحنق في نفسه!.

وإذا ما أدرك بغيته من الماء!. قفل راجعاً إلى مجلسه... فألفى (الفنلندي) قد استوى على كرسيه يدخن، فلما أبصره (الفنلندي) قال له في شيء من العجب: (ها!! أي محطة هذه؟!) فأجابه كليموف في صبر نافذ وقد استلقى على مقعده وضم شفتيه حتى لا يتسلل إلى حلقه دخان الغليون الحاد اللاذع: (لست أدري!.)

- (متى نصل إلى مدينة (تفر)؟!..)

- (لست أدري! ومعذرة إن كنت لا أستطيع الكلام إني مريض ضيق الصدر!!..)

فطرق (الفنلندي) حافة النافذة بغليونه!. وطفق يحدثه عن أخيه البحار فلم يعره (كليموف) أدنى التفات ولم يكترث له بل راح يفكر في فراشه الوثير اللين. . . وإبريقه البلوري ذي الماء العذب القراح... ويتصور في خياله أخته (كاتي) التي تعرف وكيف تروض نفسه وتخلع بزته وتحنو عليه وترنو إليه!. ثم ترسمت على شفتيه بسمة شاحبة، حينما تذكر خادمة الجندي (بافل) وهو ينزع حذاءه الضخم في رفق... ويضع الماء على المنضدة في هدوء!.. وخيل إليه إنه ما يكاد يستلقي على سريره ويجرع بعض الماء يطفئ به غلته... حتى يزول عنه ألمه، ويبرأ من سقمه! ويغط في نوم هادئ!...

عادت تلك الأصوات تختلط في سمع كليموف في هرج ومرج وراح يطرق أذنه في عنف هدير الأجراس وصفير القطار. . . وضوضاء العجلات، وهي تنساب صاخبة على القضبان!.

فدفن كليموف وجهه - وقد تملكه اليأس ولح عليه الألم - في وسادة المقعد... ثم أمسك برأسه بين يديه... وثانية راحت تطوف بفكره خواطر عن أخته (كاتي) وخادمه (بافل)...

ولكن أخته وخادمه اختلطا - هذه المرة - في الصور التي تتهيأ له والأشباح التي تتمثل لوهمه... ولفحت وجهه حرارة زفراته التي تردها عليه الوسادة... وقد دفنه فيها!.

وتسرب الوهن إلى عظامه فشقت عليه الحركة. وتسلل من النافذة تيار هوائي بارد، فأصاب ظهره... بيد أنه لم يحرك ساكناً وأبى أن يغير الوضع الذي استقر عليه جسده..

ثم لم يلبث أن غاب في سبات قلق مضطرب، سعى إليه فغل أطرافه وأغمض أجفانه!!...

فلما ثاب إلى رشده - بعد أن تقضي زمن طويل - رأي النهار بازغاً، والشمس تبعث في أوصال الكون ضياءها!...

وكان السفر يهمون بارتداء معاطفهم، ويتهيأون لمغادرة القطار. .. حتى إذا وقف في الموضع الذي أعد له. . . أسرع الحمالون في مآزرهم البيضاء، وأرقامهم النحاسية الصفراء. . . إلى الركب يحملون عنهم متاعهم وحقائبهم...

فألقى (كليموف) معطفه على منكبيه في حركة آلية... وغادر القطار!. وأحس - وهو يسيرانه ليس هو. بل مخلوق آخر!. غريب.. . وأحس أن حرارة القطار مازالت ناشبة فيه... وأنه ما برح مصحوباً بذلك الصدى في حلقه... والأشباح من حوله... والكآبة في نفسه... وهي التي جميعاً حرمت جسده لذة الرقاد وحبست عن عينيه نعمة النوم...

واستقل عربة - كانت واقفة خارج المحطة - بعد أن وضع أمتعته إلى جواره في تلك الحركات الآلية... وتقاضاه السائق (روبلا وخمس وعشرين كوب) حتى يبلغ به دارة في شارع (بوفارسكا)... فأذعن لما أراده عليه، ولم يساومه وهو يعلم حقاً أن ثمت زيادة في الأجر... بيد أن النقود لم تكن ذا قيمة لديه في ذلك الحين!...

فلما بلغ بيته... تلقته خالته بالترحاب!. وقابلته أخته وهي غادة هيفاء شارفت ربيعها الأول من العمر.. فحيته بإيماءة رقيقة وهي ممسكة بقلم تخط به في كراسة معها... فتذكر أنها تتهيأ لامتحان تنال به إجازة التدريس..

ولكنه لم يرد تحيتها ولا أجب على أسئلتها!. بل راح يلهث من الأتون الذي يضطرم في صدره... وانطلق على غير هدى ولا بصيرة.. يجتاز الحجرات إلى حجرته.. فارتمى على فراشه يئم ويتأوه.

وتراءت لخياله من جديد تلك الأشباح والصور التي لزمته في القطار!. الفنلندي وغليونه. . الجندي ذي القلنسوة الحمراء!. والسيدة ذات الثنايا اللؤلؤية. . ورائحة الشواء. وضياء المصباح الواهنة.. المتراقصة.!! فأفقدته صوابه وسلبته رشده وجعلته لا يبصر ما حوله ولا يسمع تلك الأصوات القلقة على مقربة منه.!

فلما أفاق من غشيته... ألفى نفسه مضطجعاً في فراشه.. عاري الجسد أو شبه عار!. ولمح خادمه (بافل)، وذلك الإبريق البلوري ذا الماء العذب.. بيد أن هذا لم يخفف من حدة مرضه، ولم يجلب عليه راحة أو سكينة..

فما برحت أطرافه واهنة متيبسة يشق عليه تحريكها. ولسانه قد تشقق من جفاف.. حتى عكدته وعلاه الطلا.. وراحت ترن في

مسمعه قهقهة ذلك الفنلندي وقولته: (ها!!.).

وقام إلى جوار فراشه رجل بدين عظيم الهامة ذو لحية سوداء إنه الطبيب!. ينظر إليه في إمعان وتأمل، ولم يلبث أن نبس في صوت ذي فيهقة وتشدق: (حسن!. حسن. . يا صغيري رائع. . رائع. . لقد برأت تماماً!. .).

فأثارت طريقة الطبيب في النطق، وضغطه مخارج الحروف حنق كليموف. . وأغضبته دعوته له بـ (يا صغيري)، وأسخطه ذلك التلطف البغيض الذي يبديه نحوه. فلما تمتم قائلا: (ما الذي يدعوك إلى مناداتي بـ (يا صغيري)؟. وما علة تلك الألفة التي تحدثني بها؟. عليك اللعنة!.) راعة من صوته جرس أجش صعق!. كاد أن ينكره!!.

كان الوقت يكر في سرعة ينزعج لها القلب، كزمن القطار!. فقد كان ضوء النهار يغمر الغرفة ويسطع في أرجائها. . ثم ها هي ذي عتمة المساء تخيم وتشيع في أنحائها!. ولكن الطبيب لم يبرح الغرفة، بل ظل فمه يتشدق بتلك الألفاظ البغيضة الثقيلة في كل حين!.

وعاد يتراقص أمام ناظره في فضاء الحجرة العريض صف غير ذي نهاية من الوجوه والسجن. . (بافل). . الفنلندي. . القائد (تاروشفتش). . والضابط (مكسيمنكو).!. وذو القلنسوة الحمراء. . . السيدة ذات الثنايا اللؤلؤية. . . الطبيب المتفيهق! كلهم يتحدثون ويلوحون بأياديهم! ويأكلون في نهم.

ولم يلبث (كليموف) أن أيصر - في بياض النهار الآفل - كاهن الكنيسة الأب (ألكسندر) في مسوحة الديفية. . . يقبض بين أنامله على الصليب!. . ويتمتم بصلوات وأدعية!. . وقد تجلت عليه دلائل لم يرها (كليموف) من قبل. . فشردت عن وجهه تلك الابتسامات والضحكات التي طالما طالعته مترسمة عليه. . وتبدت عليه سيماء الرزانة والرصانة!. . وأخذ يرسم على كليموف علامة الصليب!. .

وفي الليل. . كانت تتسلل حوله أشباح وظلال تغدو وتروح في إبهام وغموض. . . وكانت أخته راكعة إلى جواره!. . تردد صلاة

خفيفة في صمت وخشوع.!. وترفع طرفها - في هيبة ورغبة - إلى السماء حيناً تطلب الرحمة من الله. . وإلى صورة (القديسين) أحياناً تسائلهم العطف والشفاعة. .

ما أن تنسم (كليموف) البخور والأرج - وهو يتضوع في جو الغرفة - حتى صاح - وقد استفزه ما استقر في بطنه (احملوا هذا البخور اللعين بعيداً!.).

بيد أنه لم يكن ثمت من يجيبه. . وكان يترامى إلى سمعه من بعيد صوت الكهنة، وهم يرتلون أناشيد (الوداع). . وصدى خطوات تهول على درجات السلم بين صعود وهبوط!.

حينما خفت وطأة الحمى عن كليموف. وانثنى عنه هذيانه!. كانت غرفته عاطلة من البشر. . وراحت أشعة الشمس تفيض من خلال النوافذ، وتسيل من بين السدول والأستار!. وراح يتراقص على مياه الإبريق البلوري شعاع مرتعش من النور دقيق براق كلاسيف المسلول. . . وطرق سمع (كليموف) صليل العجلات وصرير العربات وهي تدرج في الطريق، فأدرك أنه خلو من الثلوج. .

فراح يمد طرفه إلى ذلك الشعاع. . ثم يقلبه بين أثاث الغرفة ومتاعها. . . ونوافذها وبابها. ولم يلبث أن راودت نفسه رغبة ملحة في الضحك.!!. فأخذ صدره يهتز وخصره يرتج من الضحك العذب البهيج الذي راح يحتاج جسده من هامة رأسه حتى أخمص قدمه. . وهو لا يدري لذلك سبباً سوى الشعور البالغ من السعادة والارتياح، والإحساس السابغ من البهجة والمراح. .

وتملك كليموف شوق فائق إلى الناس والحركة والحديث، غير أنه لم يقو على تحريك أي عضو من جسده لما يعتريه من وهن وضعف! كان منشرح الصدر طلق المحيا لتنفسه الهادئ طيب النفس طرب الفؤاد لضحكه وبشره!. ووجود ذلك الإبريق البلوري ذي الماء العذب الفرات. . وشعاع الشمس المرتعش، وأستار النافذة المزركشة المزينة بشتى الألوان. .

ولاح له فيما بين جدران غرفته كون فاتن رائع. . أبدع الخالق صنعه! وحينما ولف الطبيب إلى غرفته ملك الصبيحة تمثل في

ذهنه ما هو عليه من علم وبراعة في التشخيص، ودمائه ورقة في المعاملة وحسن وظرف في المعاشرة. . ما أجمل الناس جميعاً!. ما ألطفهم!!

قال الطبيب (رائع!. رائع. . لقد تماثلت يا) صغيري (للشفاء. . وكدت أن تبرأ وتعاودك عافيتك!. .).

فأصغى الضابط الشاب إلى فيهقته في النطق. . وهو يضحك جزلا. . ثم هاجته ذكرى ذلك (الفنلندي). . والسيدة ذات الثنايا اللؤلؤية. . والقطار. . فانقلب ضحكه إلى قهقهة. .

ثم لم يلبث أن طلب بعض الطعام والسجائر. . وقال في إلحاف (أيها الطبيب!. دعهم يحضرون لي خبزاً وسردينا وملحاً. .) فأبى الطبيب عليه ذلك!. وصدع (بافل) بأمره. . ولم يسع في طلب الخبز لسيده. . فطفق (كليموف) يصرخ ويصيح كالطفل حينما لا يجاب إلى بغيته. . فقال له الطبيب وهو يضحك مداعباً: (اسكت. . أيها الوليد الصغير. .) فلم يسع كليموف سوى أن يشاركه ضحكه! ولما غادره الطبيب أغرق في وسن هادئ عميق. . . أفاق منه بعد حين ومازال هذا الإحساس المفعم بالمرح، الفياض بالسعادة. يتملكه ويتسلط عليه نفسه. . وقد جلست خالته بجانب فراشه. . . فابتدرها قائلا في بهجة وبشر: (أه. . يا خالتي!. ما الذي كنت أعانيه؟!. .)

- (تيفوس!. . .)

- (أحسبه كذلك! بيد أني الآن في تمام الصحة أين كاتي؟)

- (ليس بالدار!. . . لعلها ذهبت لزيارة إحدى لداتها بعد فراغها من الامتحان!.)

ومالت المرأة العجوزة - وهي تقول ذلك - نحو جوربها كأنها تبغي إصلاحه بيد أن شفتيها أخذتا ترتعدان!. فأشاحت بوجهها بعيداً. . . وبغتة راحت تجهش بالبكاء وتنشج بالنحيب.

لقد نسيت في غمرة حزنها وحسرتها ما أمرها به الطبيب ففتأت تصيح: (آه. . . كاتي! كاتي!. . . لقد ذهب عنا ملاكنا. . . لقد رحلت!.) وأطرقت برأسها إلى الأرض، وهي تتأوه من البث والأسى. . . فحملق

كليموف في شعرها الرمادي. . لا يحير فهما لما تقول، فسألها وقد تولاه الانزعاج. . . لكاتي. . . (ولكن أين ذهبت يا خالتي؟؟!!.).

فأجابته العجوز بين دموعها التي راحت تنهمر على وجنتيها، وتكاد أن تخنق صوتها: (لقد أصيبت منك بالتيفوس!. . وماتت! وواريناها التراب في اليوم السابق على البارحة!).

على الرغم من فجاءة وهول ذلك النبأ المفزع المروع. . . فما استطاع (كليموف) أن يقمع تلك الغريزة الحيوانية، التي جنحت بالضابط الناقه إلى الضحك والمرح! فراح يصيح ويقهقه ويشتكي الجوع. . . حتى إذا انقضت سبعة أيام. . . اعتمد كليموف على ساعد (بافل) وخطى وئيداً حتى دنى من النافذة. . . حيث قام ثمت يسرح الطرف في مساري الربيع الطلق الضاحك وهو ينفث في الأرض الحياة والخضرة! وقد علت شمس الضحى في السماء تكالمها الغيوم والسحب. وطرق سمعه صليل العربات فخيل إليه أنه فظيع حاد!

حينئذ صدع قلبه الأسى وأمضه الكمد. . . وأحس بوقع الفجيعة عليه أليما عنيفاً. . . فطفق ينتحب في وله ومرارة ويغمغم شارد اللب كاسف البال. . . وقد دفن رأسه بين راحتيه. . . (كم أنا شقي!. . . يا ربي. . . كم أنا شقي!. . .).

وودع بهجته ومرحه. . . وانثنى يضطرب فيما كان يكتنفه من سآمته للحياة وضجره بالعيش. وقد ضاعفتهما فداحة تلك الخسارة التي لا تعوض!. . .

books4arab.com

obeikandl.com

شجرة عيد الميلاد....

تيودور دوستويفسكي

أنا كاتب قصصي، وأعتقد أنني كتبت هذه القصة. أقول (أعتقد) مع علمي التام بأنها من إبداع قلمي. ولكني مع ذلك على يقين بأنها قد حدثت فعلا في مكان ما في زمن ما، وقعت في بلدة كبيرة ذات ليلة من ليالي عيد الميلاد الشديدة القر.

إني أتخيل غلاماً، صبياً صغيراً، له من العمر ست سنوات أو أقل. استيقظ من مرقده في قبو رطب بارد، وكان يرتدي جلباباً قصيراً ويرتجف من لفحات القر، وتخرج من فمه مع زفيره سحابة بيضاء من البخار وهو قابع على صندوق في ركن من أركان القبو، يراقبها تتصاعد في الجو مبتعدة عنه.

كان يشعر بالجوع يلوي أحشاءه. وكم ذهب العديد من المرات في صباح ذلك اليوم إلى الفراش العاري الذي ترقد عليه والدته العليلة، ذلك الفراش ذو الحشية الرقيقة المهلهلة والوسادة أشبه ما تكون بالأسمال.

ما الذي أوجدها هنا؟ لعلها قدمت مع ولدها من بلدة أخرى ثم دهمها المرض فجأة. كانت صاحبة الدار قد قبض عليها منذ يومين وأودعت السجن. ورحل معظم السكان لاقتراب العيد ولم يبق في الدار إلا من ثمل دون أن ينتظر عيد الميلاد، وعجوز في سن الثمانين رقدت في أحد الأركان تتأوه وتتوجع من آلام (الروماتزم) وتعنف الصبي وتبدي تذمرها منه فيخشى الاقتراب منها.

كان في وسعه أن يحصل على ما يروي ظمأه من الغرفة المجاورة، ولكنه لا يجد كسرة من الخبز يسد بها رمقه وكم قاسى من ذلك الجوع الذي كان يدفعه إلى محاولة إيقاظ والدته عشرات المرات. وشعر أخير بالخوف ينتابه الخوف من الظلام. كان الليل

قد أرخى سدوله، ولم يكن عنده ما يستضئ به، ولمس وجه والدته فلم تبد أي حراك. كانت باردة برودة الحائط. فجعل يخاطب نفسه قائلا (إن الجو بلا شك بارد جداً) ووقف لحظة، وبدون أن يشعر، وضع يده على كتفي والدته، ثم نفخ في أصابعه يدفئها، ثم جعل يبحث على قلنسوته فوق الفراش، وأخيراً خرج من القبو.

لقد كان يود أن يخرج مبكراً، لولا فزعه من الكلب الكبير الرابض عند باب الجيران. ونظر، فلم ير للكلب أثراً، فتابع سيره لا يلوي على شيء.

فليرحمنا الله. يا لها من بلدة! إنه لم ير مثلها من قبل. حقاً إنها لم تكن كبلدته. كان الليل حالك الظلام، ولم يكن في الطريق سوى مصباح واحد. وتوارى الناس في ديارهم، فلم يسمع إلا نباح الكلاب، مئات بل آلاف منها تنبح وتعوي طوال الليل. ولكنه كان في بلدته يستشعر الدفء ويجد ما يقتات به. أما هنا. . . آه لو استطاع أن يجد ما يأكله. يا لها من جلبة وضوضاء! ويا لها من إضاءة! ويا لهؤلاء القوم وتلك المركبات، وهذا الصقيع! كان البخار يتصاعد في سعب من أفواه الجياد، وكانت حوافرها تصطدم في سيرها بالأحجار المغطاة بالثلوج المتراكمة. كم هو في حاجة إلى ما يسد غائلة جوعه. . . ولم يشعر الآن بالتعاسة. واقترب منه شرطي فتنكب طريقه وابتعد عنه.

ها هو ذا طريق آخر، وما أوسعه من طريق. كان الناس غادين رائحين، يصيحون ويهرولون ويندفعون والضوء! ذلك الضوء! ولكن. . ما هذا؟ إنها نافذة زجاجية كبيرة. ونظر خلالها فرأى شجرة طويلة من أشجار عيد الميلاد ممتدة حتى السقف، وقد تدلت منها مصابيح وأوراق مذهبة وتفاح ودمى صغيرة وجياد. وكان الأطفال في ملابسهم القشيبة يلهون ويمرحون، ويأكلون ويشربون. ثم ابتدأت فتاة ترقص مع أحد الصبية. وانسابت إلى أذنيه نغمات الموسيقى. ونظر وتعجب ثم ضحك. كانت أطرافه تؤلمه من البرد وأصابعه حمراء متصلبة، توجعه إذا ما حركها. وعندما تذكر ذلك، طفق يبكي، ثم عدا حتى انتهى به المطاف إلى نافذة أخرى شاهد من

ورائها شجرة ثانية، ومنضدة حافلة بمختلف الحلوى وقد جلس حولها ثلاث سيدات يوزعن الحلوى على كل من يقصدنهن. وظل باب الدار مفتوحاً يدخله الكثيرون من الرجال والسيدات وزحف الصبي، ودفع الباب، ثم دلف إلى الغرفة. لقد صاحوا فيه ودفعوا به إلى الخارج. وأقبلت عليه سيدة تهرول ودستْ في يده قطعة من النقود، ثم فتحت له الباب ودفعته دفعاً إلى الطريق.

وسقطت قطعة النقود منه، ورن رنينها على الأرض. ولكنه لم يستطع قبض أصابعه الحمراء لالتقاطها. وجرى مبتعداً، وطفق يعدو إلى حيث لا يعلم. وكاد يبكي مرة أخرى. كان خائفاً مرتعباً، واستمر يعدو وينفخ في أصابعه، يائساً، وحيداً جزعاً. ولكن. . . ما الخبر؟ كان الناس محتشدين أمام زجاج نافذة وقد ظهرت على محياهم علامات الإعجاب لرؤيتهم ثلاث دمى صغيرة تتحرك وكأنما قد دبت فيها الحياة. كانت الأولى تمثل رجلا عجوزاً جالساً يعزف على كمان كبير، والدميتان الأخرتان واقفتان تعزفان على كمانين صغيرين وتحنيان رأسيهما ثم تحيي كل منهما الأخرى. وكانت شفتاهما تتحركان كما لو كانتا تتحدثان.

ظن الصبي بادئ الأمر أنها حية. ولكنه عندما استبان له أنها ليست إلا دمى، ضحك وتهلل. أنه لم يشاهد مثلها من قبل، ولم تكن تخطر له ببال. وألهاه ذلك المنظر عن شعور البكاء الذي انتابه. ثم شعر بمن يجذبه من ردائه. فالتفت خلفه فرأى غلاماً يلطمه على أم رأسه، ثم اختطف منه قلنسوته، ثم ألقاه على الأرض، فسقط الصبي مرتعباً، ولكنه سرعان ما هب واقفا وعدا مبتعداً عن النافذة وقد وجف قلبه فزعا، وطفق يعدو دون أن يدري إلى أين يذهب، حتى وصل إلى باب ساحة. فدلف إليها وتهالك على كومة من الأخشاب وهو يخاطب نفسه (إنهم لن يبحثوا عني هنا، في ذلك الظلام المدلهم).

وجلس منطوياً على نفسه، مبهور الأنفاس. ثم شعر فجأة بالسعادة تغمره، وزال الألم من أصابعه واستشعر الدفء وكأنه قرب موقد. فارتجف وصاح (عجباً! لا بد أني أحلم! كم هو لذيذ

أن ينام المرء هنا. سأرقد قليلا ثم أعود بعد ذلك لمشاهدة الدمى (وابتسم وهو يفكر فيها، وقد تمثلت في خاطره كأنها مخلوقات حية. وسمع صوتاً حنوناً يهتف في أذنه قائلا (تعال إلى شجرتي. شجرة عيد الميلاد أيها الطفل).

وظن الصبي أنها والدته هي التي تهمس في أذنه. ولكن. لا. إنها لم تكن والدته. من الذي يناديه؟ ولم يجرؤ على النظر إليها عندما انحنت فوقه تحتضنه في الظلام. ومد يده إليها. وفجأة. . . يا إلهي. ما هذا الضوء الباهر؟ وما أجمل هذه الشجرة! أين هو الآن؟ كان في مكان جميل كثير الدمى. ولكن. . . كلا إنها لم تكن دمى، بل كانوا أولاداً نضرين في حلل قشيبة وقد تهللت وجوههم بشراً. وأقبلوا عليه من كل صوب يحيطون به ويقبلونه. وشاهد والدته تنظر إليه وقد أشرقت على شفتيها ابتسامة فياضة. فصاح قائلا (أماه، أماه، ما أجمل أن يعيش المرء هنا!) وجعل يقبل الأولاد، وود أن يخبرهم عن الدمى التي شاهدها. وجعل يسألهم (من أنتم؟ من أنتم؟) وهو يشاركهم الضحك معجباً بهم. فأجابوه (هذه شجرة عيد ميلاد المسيح، شجرته الخاصة، وهبها للأطفال الذين لا يملكون مثلها).

كانوا أطفالا حالهم مثل حاله. فمنهم من تجمد برداً في السلال التي تركهم ذووهم فيها على عتبات الديار. ومنهم من لقي حتفه خنقاً خشية العار. ومنهم من مات على ثدي والدته الجائعة والآخرون دهمهم الموت من فساد هواء المكان الذي كانوا يعيشون فيه. ومع ذلك. . كانوا كلهم مجتمعين هنا كالملائكة حول المسيح. وكان المسيح يتوسطهم ويمد يده إليهم يباركهم وأمهاتهم قد فاضت دموعهن. وكانت كل من تعرفت بولدها تندفع إليه في شوق تقبله فيمسح عبراتها بيديه الصغيرتين، متوسلا إليها ألا تبكي. كانت تغمرهم السعادة. . السعادة الحقة.

وانبثق نور الفجر، عندما وجد حمال جثة الصبي متجمدة الأطراف من شدة القر، راقدة على كومة الأخشاب.

وبحثوا عن والدته. كانت قد سبقته إلى العالم الآخر. لقد تقابلا

أمام الله في السماء.

لست أدري لماذا كتبت هذه القصة التي لا تجري في أسلوبها مع مذكرات عادية أو مؤلفات كاتب. ولكن كل ما أدريه أني ما زلت على يقين بأنها ليست وليدة الخيال، وإنما وقعت فعلا، وإنه قد حدث ما حدث في ذلك القبروكومة الأخشاب هناك.

أما عن شجرة المسيح، فلا أستطيع أن أجزم هل هي حقاً في علم الوجود أم أنها من نسيج خيالي.

obeikandl.com

obeikandl.com

رثاء!...

أنطون تشيكوف

في صبيحة يوم صاح مشرق مات (عضو التحكم) (كيريل أفانوف بابيلونوف) صريع الداءين اللذين كثيرا ما أوديا بحياة الروس: إدمان الخمر وفظاظة الزوج. . . وكان الناس في شغل بتشييع موكب جنازته الذي كان في طريقه إلى القبر. . . إلا أن (بولافسكي) وهو صديق حميم للفقيد، أسرع فركب عربة أدت به إلى صديق له يدعى (زايوكين). ولزابوكين هذا قدرة على ارتجال الخطب فائقة فهو يقولها أني كان وحيثما يدعي، فلا تموته سنة ولا حمى ولا سكر عن ارتجالها. . . سواء أكان في مأتم يرثي، أو في حفل يلهج ويشيد، كانت الكلم تتدفق من فيه كالماء عزيزا سلسالا. . .

وكان هذا ما حدا ببولافسكي أن يسرع إليه، ولاسيما والخطب الذي ألم يحتاج إلى خطيب يعدد مناقب الراحل العقيد كزابوكين. . . وقال بولاكسي لزابوكين حينما لقيه:

- إنني آت لأدعوك. . . فهيا يا صاح ارتد معطفك واتبعني. لقد مات اليوم أحد زملائي، موكب جنازته في طريقة الآن إلى القبر. وليس لنا مثل هذه الخطوب غيرك. . . ليس لنا من خطيب راث مفوه سواك. . . ثق يا صاح أنه لو كان الميت وضيعا مركزه لما أزعجتك. ولكنه (الأمين). . . فلا يليق بنا أن نوسده التراب دون مرات تلقي أو خطب تقال. . .

فتتثاءب زابوكين وقال:

- الأمين؟ آه. أتعني ذلك السكير؟ -

- أنه هو. . ولكني لا تنس يا عزيزي أن مأدبة عشاء ستؤدب. وأجر العربة سيدفع، هيا يا صاح فما عليك إلا أن تلقي بإحدى خطبك على القبر. . وستلمس بعينك مدى عجاب المشيعين بك

وتقديرهم لك..

فأجاب (زابواكين) طلبه تردد ولا إحجام. . . وتكلف الحزن العميق تأهباً لما سيلقي. ثم قال لصاحبه: إنني أعرف (الأمين). ذلك الوغد الزنيم. . عليه رحمه الله! وأدركا الموكب وقد بلغ المقادير، وحط النقش على الأرض، ووقفت أم الفقيد وزوجته وأختها تذرفإن الدمع الهتون - تبعاً - وما إن أنزل النعش في القبر حتى أعولت زوجه وصاحت باكية: دعوني أرحل معه. إلا أنها لم ترحل معه؛ مع أن أحداً ممن حولها لم يحل دون ذلك. ولعل ما حال دون أن تشاركه رمسه ذلك الراتب التقاعدي الذي ستتناوله. أما (زابوكين) فقد سكت حتى شمل الجمع السكون، فأداربصره في الحاضرين وبدأ خطبته قائلا:

يا ترى أبصري وسمعي صادقان؟! أنني أشهد حلماً مرعباً يبدو لي فيه هذا الرمس المظلم الرحيب وهذا الحشد الباكي الحزين وا أسفاه... أنها الحقيقة. فليس ما أراه حلماً، وليست أبصارنا - ويا للأسف - بخادعة.. إن من كان حتى الأمس يفيض صحة ونشاطاً. قد مات وروى التراب وأصبح ذكرى تستدرالدمع الساخن الغزير. لقد سلبه الردى منا، وهو لا يزال في عنفوان قوته وبهائه. . وأوح فتوته ونشاطه وإن بك متقدما في السن. . أية خسارة منينا بها. . من ذا الذي يستطيع أن يحتل مكانه في قلوب عارفيه. لدينا أيها السادة كثيرمن الموظفين.. إلا أن (بروكوفي أورزبتش) كان جوهرة يتيمة فيما كان يزدهي به ويفخر. وكان أيها السادة - المثل الأعلى للرجل الكامل الرفيع بخلقه، السامي بنفسيته. لقد كان الفقيد يأبى الرشوة فلم يرضها يوما. وكثيراً يبدي مقته واحتقاره لمن كان يلح في أخذهاوتقبلها. لقد كان يرفضها كل الرفض ويزري ضعاف النفوس ممن كانوا على نقيضه. كما لا أظنكم تجهلون أنه كان يهب راتبه التافه على مشهد منا لزملائه المعزين وها أنتم الآن تسمعون بآدابهم نحيب الأرامل والأيامي اللائي كن يعشن من فيض إحسانه. لقد ذهب ذلك الذي وهب حياته للبر، نفسه للخير، وإنكم لا تعلمون بلا شك - أيها السادة - أنه كان أعزب ولم

يزل كذلك حتى وسد التراب. . إنني لأتصوره الآن بوجهه المشرق الحليق وببسماته الحالمة العذاب، ويخيل إلى أنني أكاد اسمع صوته الرؤوف الذي كان يفيض حنانا ويقطر رقة وإخلاصا. فإلى رحمة الله يا (بروكوفي أوزبتش)... إلى الجنان الخوالد أيها العزيز. وداعاً أيها الراحل الكريم..

وكان الخطيب مبدعا حقا في إلقائه فأحرز بها إعجاب السامعين. . إلا أن العارفين منهم بالميت أدهشهم مما قاله أشياء. ذلك أنهم لم يفقهوا علة ذكر الخطيب أسم الميت على أنه (بروكوفي أوزبتش) وثانيا أن الكل كان لا يجهل أن الميت قضى حياته في تعكر صفو حياة زوجه. فكيف يقول الخطيب إنه كان أعزب؟ وأخيراً لقد كانت للميت لحية حمراء كثة ولم يك بحليقها.. فلماذا يصفه الخطيب بأنه كان حليقها؟! واشتد عجب السامعين وتبادلوا الهمس والنظريات.. وهزوا أكتافهم ساخرين.

وتابع الخطيب كلامه: أي (بركوفي أوزبتش) لقد كان وجهك شاحبا مرعبا. . إلا أننا كنا نعرف أن وراء ذلك قلباً طاهراً نبيلاً ونفساً كريمة) وما لبث السامعون أن لحظوا على الخطيب دهشة بلغت حد الذهول. فقد اتجه بصره إلى ركن من الحشد، ثم التفت إلى بولافسكي زائغ البصر، وقال بصوت متهدج: أنه حي!

- من تعني: إنه حي!

- بروكوفي أوزبتش. إنني أراه واقفا عند القبر!

- ومن قال لك أنه الميت.؟ إن الذي مات هو (كيريل إبفانوفتش) أيها الأبله.

- ولكنك قلت لي إن (الأمين) قد مات

- لقد كان (كيريل أفانوفتش) أمينا أيها الأحمق. . لقد حل محل (بروكوفي أوزبيتش) بعد أن نقل هذا ككاتب في مستهل العام المنصرم.

- أني لي أعرف هذا ولم يسبق لي به علم؟!

فأدار زابوكين وجه شطر القبر وواصل رثاءه وعينا (بروكوفي أوزبتش) عالقتان به تحدقان في حنق وغضب. . وما إن انتهى

من الدفن وعاد المشيعون حتى أخذ زملاء (زابوكين) يلغطون. . . لقد دفنت رجلا حيا. . . وأسرع (بروكوفي أوزبتش) إلى الرائي حلقاً ساخطاً: لا بأس أيها الغبي الأحمق بخطبتك إذا كانت رثاء لميت. . أما أن ترثيني وما زلت حياة فإنها سخرية بي بليغة وتهكما بخلقي فظيعا. . . لقد قلت إنني لم أقبل الرشوة ولست بذي أغراض ومنافع. . ومثل هذا القول لا يقال عن موظف حي إلا بقصد إدانته واتهامه. . . لم يطلب منك أحد أن تصف وجهي المخيف المرعب. . . إنها إهانة فظيعة سوف ترى مني العقاب عليها).

obeikandl.com

النفس الرقيق...

ايفان بونين

في المقبرة فوق أكمة نضرة مخضرة صليب جديد مصنوع من خشب البلوط. قوي ثقيل، ثابت راسخ، ناعم الملمس، بهيج المنظر. وكان الشهر أبريل ولكن الأيام غائمة كالحة. فكنت ترى من مراحل شاسعة خلال الأشجار الجرداء شواهد الأجداث قائمة في المقبرة - مقبرة رحبة ريفية أو اكبر من الريفية بعض الشيء - والريح الباردة القاصفة تصفر صفيراً مخيفاً كلما مرت من تجاويف الإكليل المصنوع من الخزف الصيني عند قاعدة الصليب. وفي الصليب نفسه ركب إطار مستدير من النحاس الأصفر. وفي الإطار صورة لفتاة حسناء فاتنة من طالبات المدارس، مهندمة الملبس، لها عينان فرحتان براقتان تنمان على الحياة والنضارة.

هذه الصورة هي صورة (أولجا مسجرسكي)

لما كانت بنتاً صغيرة لم يكن لها ما يميزها في ذلك الجمع الصاخب من ذوي الأثواب السمراء الذين كان لغطهم المتنافر يدوي في ابهاء المدرسة وصفوفها. وكل ما كان يستطيع الإنسان ان يقوله عنها هو أنها ليست إلا واحدة من هؤلاء الفتيات الكثيرات الجميلات السعيدات، وإنها ذكية، لكنها لعوب كثيرة الحركة، لا تصغي لما يلقيه عليها العلم في الصف من دروس. ثم صارت إلى النمو، وأخذت تتفتح أكمامها لا بالأيام بل بالساعات. وفي سن الرابعة عشرة، وقد أصبح لها خصر أهيف، وساقان جميلتان متسقتان، برز نهداها ولاحت عليها تلك الرسوم والملامح الدالة على النضوج، ولم تستطع لغة البشر بعدُ أن تصف فتنتها وسحرها. وفي سن الخامسة عشرة قيل عنها إنها حسناء... وكم كان أترابها ورفيقاتها في المدرسة شديدات العناية بتنظيم شعورهن، وكم كن نظيفات

obeikandi.com

محترسات في حركاتهن! ولكنها ما كانت لتخشى شيئاً فهي دائماً نظيفة الثياب حسنة الهندام، متوردة الوجه من غير قصد فمنها ولا عناء من جانبها، اجتمع لها في سنتيها الأخيرتين كل ما يميزها من باقي المدرسة، اجتمع لها الظرف والأناقة وخفة الروح وإشراق الطلعة وبريق الذكاء. . . ذلك إلى أن أحدا لا يستطيع الرقص مثل (أولجا مسجرسكي)! ولا يستطيع العدو أو الانزلاق مثلها! ولسبب ما لم تكن لأحد تلك الألفة التي كانت لها مع صفوف الصغار والأحداث في المدرسة. ومن غير أن تشعر أصبحت فتاة، ومن غير أن تشعر ذاعت شهرتها في المدرسة. ولم يمض قليل حتى أخذت الألسن تلوك عنها الأحاديث بأنها نزقة متقلبة لا تستطيع أن تحيا بغير عشاق، وأن التلميذ (شنسين) مدله في حبها مأخوذ بجمالها، وأنها هي أيضاً لعلها تحبه ولكنها لكثرة تقلبها وسوء معاملتها جعلته يحاول الانتحار غيرة مرة. .

في خلال شتائها الأخير جن جنونها بذلك الفيض من السعادة الذي غمرها. . . كذلك قالوا عنها في المدرسة. . . وكان هذا الشتاء مثلجا قارساً تنزل الشمس فيه مبكرة وراء الأيكة الكثيفة من أشجار الشربين الباسقات خلف بستان المدرسة المكسوة بحلل من الثلج الناصع. ولكن الجو كان رائعاً بساماً على الدوام. اليوم ثلج وغدا شمس. نزهة قصيرة في شارع الكنيسة. انزلاقة في متنزه المدينة. غروب وردي دافئ؛ موسيقى. . . ثم ذلك الجمع الدائم الحركة الذي كانت (أولجا) تلوح من بينه أخفه روحاً وأشده نزقاً وأوفره سعادة. وفي ذات يوم بينما كانت مندفعة كالإعصار في غرفة الألعاب تعدو في أثرها الفتيات الصغار يصرخن ويهتفن مبتهجات استدعتها رئيسة المدرسة على حين غرة. فوقفت بغتة وتنفست نفساً عميقاً ثم رتبت شعرها وسحبت أطراف مئزرها كي توصله إلى كتفيها. وبعينين مضيئتين هرعت إلى فوق. كانت الرئيسة صغيرة السن، لكن شعرها كان أبيض، وكانت جالسة بهدوء إلى الطاولة تحت صورة القيصر وفي يديها تطريز قد انكبت عليه واستغرقت فيه.

قالت الرئيسة بالفرنسية دون أن ترفع عينيها عن التطريز (عمى صباحاً يا (مس. مسجرسكي) - إنني آسفة لأن هذه ليست المرة الأولى التي اضطررت فيها لاستدعائك إلى هنا لأكلمك في سلوكك) فأجابت (اولجا) - لقد أخذت بإرشادك أيتها السيدة - قالت ذلك وهي تقترب من المنضدة تنظر إليها بإشراق باد وسرور ظاهر، وفكر شارد، ولم تؤد إليها من التحية إلا طرفاً ضئيلاً ظريفاً هو كل ما تستطيع تأديته من التحيات.

فقالت الرئيسة (انك لم تسمعي ما أقول - وقد اقتنعت وا أسفاه بهذا) قالت ذلك وسحبت الخيط سحبة تدحرجت لها كرة الخيوط على البلاط الصقيل اللامع، وتبعتها أولجا بنظرة مستطلعة. ثم رفعت الرئيسة عينيها إليها وقالت (سوف لا أكرر ما أقول. سوف لا أكثر من القول).

راق (اولجا) غرفة المطالعة هذه، وراقتها نظافتها الغريبة واتساعها غير المألوف. وأعجبتها زنابق الورد الجنية الزاهية التي كانت موضوعة في زهرية فوق المكتب. جلت بنظرها إلى القيصر الشاب وقد صور بكامل جسمه في بهو فاخر، ولبثت ساكتة لا تنبس ببنت شفة.

قالت الرئيسة في لهجة تدل على معنى مقصود منها. وقد شعرت في نفسها بسورة من الغضب: (انك لم تعودي الآن بنتاً صغيرة)

فأجابت أولجا في سذاجة يغلب عليها الحبور. (نعم. سيدتي!)

قالت الرئيسة ولا يزال في لهجتها معنى تقصده، وتتعمد الإلماع إليه (لكنك لم تصبحي امرأة بعد) واحمر وجهها الشاحب بعض الحمرة وقالت (خبريني أولاً: لماذا تصففين شعرك بهذا الشكل؟ انك لتصففينه كالمرأة).

فأجابت أولجا (ليس من ذنبي يا سيدتي أن يكون شعري جميلاً) وأمسكت شعرها المنظم الجميل بكلتا يديها وبشكل لا يخلو من دلال.

فقالت الرئيسة (أحقاً ما تقولين؟ أصحيح أنه لا لوم عليك؟ - ألا تلامين على الطريقة التي تنظمين بها شعرك؟ ألا تلامين على

هذه الأمشاط الغالية؟ ألا تلامين إذا أفقرت أبويك باقتناء حذاء بعشرين روبلا؟ ولكني أكرر القول بأنه قد غاب عن بالك انك لا تزالين طالبة ليس إلا). وهنا قاطعتها أولجا فجأة بأدب ومن غير أن تفقد شيئاً من بساطتها وهدوئها قائلة (عفواً يا سيدتي انك خاطئة، إنني في الواقع امرأة، وهل تعلمين من يلام على ذلك؟ انه صديق أبي وجاره أخوك (الكسي ميكالوفتش)... وقد وقع ذلك في الريف في الصيف الماضي).

بعد هذا الحوار بشهر أطلق ضابط من أجلاف القوزاق سمج أخرق، في هيئة السفلة من الرعاع والأفاقين، على أولجا عياراً نارياً أرداها قتيلة وهي في جمع من الناس على رصيف المحطة وقد وصلوا تواً بالقطار. وهكذا تحقق بهذا الحادث اعتراف (أولجا) الذي صعق الرئيسة. فقد قال الضابط للمحقق إن (مسجرسكي) قد أخرجته عن وعيه، وإنها فيما مضى كانت لها به صلة من صلات العشق الخفي، وإنها وعدته بالزواج منه، وفي محطة القطار في يوم مقتلها عند ما رأته يغادر المدينة إلى (نوفوجركاسك) أخبرته بغتة بأنها لن تفكر في الزواج منه، وان كل ما قالته له من أمر الزواج لا يتعدى السخرية منه والهزء به، وإنها ناولته مذكرتها ليقرأ فيها تلك الصفحات التي كانت قد كتبتها عنه.

قال الضابط (ألقيت نظرة عجلى على تلك الصفحات - وذهبت إلى الرصيف حيث كانت تخطر جيئة وذهاباً تنتظرني ريثما أفرغ من قراءتها وسددت إليها مسدسي فقتلتها. وتلك هي المذكرة في جيب معطفي، انظر تحت تاريخ 10 يوليو من السنة الماضية...). وهذا ما قرأه المحقق:

(الساعة الآن الثانية صباحاً. استغرقت في نوم عميق لكنني ما لبثت أن استيقظت مرة أخرى... أصبحت اليوم امرأة. أبي وأمي و (توليا) كلهم سافروا إلى المدينة وبقيت وحدي. ما أسعد الإنسان أن يكون وحده. آه لو أستطيع أن أصف مبلغ سعادتي بوحدتي هذا اليوم. في الصباح أخذت أتمشى في البستان بالمزرعة. دخلت في الأيكة الوارفة الظل. خيل إليّ أنني وحدي في هذا العالم كله.

ليس فيه غيري. لم تلم بي قبل اليوم أمثال هذه الخواطر والأفكار اللذيذة. . . ما أحلاها. . . تناولت طعام الغداء وحدي، ثم لعبت ساعة من الزمن. . . وألقت الموسيقى في روعي بأنني يجب أن أعيش أبداً وأن أكون أسعد مخلوق على وجه الأرض! ثم أخذتني سنة من الكرى في غرفة الاستقبال الخاصة بأبي. وفي الساعة الرابعة أيقظتني (كيت) وقالت لي إن (الكس ميكالوفتش) قد حضر إلى هنا. كم سررت بلقائه. كم كان جميلا أن استقبله وأكرم مثواه. جاء ومعه جوادان مطهمان. ما أجملهما؟ ظلا طيلة لبثه واقفين عند الباب الأمامي. لكنه لبث هنا لأن المطر كان ينهمر كأفواه القرب وأنه يرجو انقطاعه وجفاف الطريق عند المساء. أسف أشد الأسف لعدم لقائه أبي في البيت. كان مبتهجاً خفيف الروح مترعاً بالحياة، عاملني بكل لطف وأدب. وصار يتنادر معي ويذكر في دعابه وفكاهة أنه وقع في شراك حبي من زمن بعيد. وقبيل تناول الشاي أخذنا نخطر في البستان بين الرياحين والأغصان المتمايلة وكان الجو رائعاً فاتناً، ولكن الرد طفق يشتد، وظللنا نمشي معاً ذراعاً بذراع، وقال كأنه معي فاوست مع مرجريت!. هو في السادسة والخمسين، إلا أنه لم يزل وسيماً جذاباً. حسن الهندام دائماً - والشيء الذي أنكرته عليه هو أنه جاء اليوم متلفعاً بملفعة تفوح منها رائحة عطر انكليزي ولا تزال عيناه عيني شاب يافع. . لحيته طويلة مسترسلة. مفروقة في وسطها فرقاً جميلا - هي فضية لامعة. - تناولنا الشاي في الشرفة الزجاجية، وشعرت بغتة أن وعكاً خفيفاً عراني فاستلقيت على السرير وظل هو يدخن. ثم جلس بقربي وشرع يقول أقوالاً لذيذة، فيها متعة، وفيها ما يستثير كامن الوجد ومكبوت الهيام. ثم تناول يدي فطبع عليها قبلة حارة. . . فجعلت من منديلي الحريري الكبير ستراً أسدلته على وجهي، وجع ينهال بالقبلات إثر القبلات من فوق المنديل على شفتي. . . لا أدري كيف وقعت الواقعة!. لا أستطيع أن أقول كيف حدثت، قد جن جنوني!. . ما كنت لأحلم يوماً أنني أكون كتلك اللحظة. . والآن لا أشعر نحوه بغير شيء واحد: الاشمئزاز الذي لا قبل لي بحمله. أواه!

openkandil.com

ما أشد ما ثار في نفسي بعد ذلك من المقت له!!

المدينة في هذه الأيام من أبريل نظيفة نقية، قد ذهبت بأدرانها وأقذارها أمطار الشتاء، وبدت حجارتها بيضاء ناصعة، وأصبح السير فوقها محبباً شهيا.. . في كل يوم أحد بعد القدّاس ترى في شارع الكنيسة المؤدي إلى خارج المدينة امرأة قِمئة ضئيلة الجسم تلبس الحداد، في يديها قفازان من جلد المعز الأسود، تحمل مظلة مقبضها من الأبنوس، تراها تسير في الشارع وما تنتهي منه حتى تجوز ساحته، ثم تعبر السوق المتهدمة حثت الحدادون الكثيرون، وحيث النسيم يهب رقيقاً عليلاً من الحقول القريبة. وهناك على بعد كبير بين الدير والسجن ترى العين المنحدر الأبيض من القبة السماوية، والحقول المترامية تغتسل في تلك القتمة الرمادية.. . وبعد ذلك، بعد أن تجوز البركة الكدرة خلف الدير ترى ما يبدو لك كأنه حديقة فسيحة واطئة محاطة بسور أبيض كتب على بابه: (صعود سيدتنا إلى السماء هناك تقف المرأة وقفة قصيرة ترسم مسرعة بيديها صليباً على صدرها وتسير سالكة الطريق الأصلي: ومتى وصلت المقعد إزاء الصليب الجديد المصنوع من خشب البلوط، جلست في تلك الريح الشديدة وذلك الهواء القارس ولبثت كذلك ساعتين.. حتى تؤلمها قدماها من شدة البرد، وهما في ذلك الحذاء الخفيف، وحتى تكاد تجمد يداها من قسوته ولذعته. وبينا هي تستمع لأطيار الربيع تصدح بالغناء العذب، والصوت الرخيمالرقيق حتى في ذلك البرد القارس. وبينا هي تصغي إلى صفير الريح تمر من تجاويف إكليل الخزف وتضاعيفه تبرق في رأسها فكرة أنها تقدم نصف حياتها لو أن ذلك الإكليل البارد الميت لا يكون أمام عينيها. ثم إن (أولجا مسجرسكي هي التي دفنت في ذلك القبر)، هذه الفكرة وحدها، تغمرها في لجة من الدهش البالغ والحيرة المتناهية، فيبدو عليها وجوم عميق وذهول غريب وجزع مروع: كيف يستطيع الإنسان أن يجمع بين طالبة غضة بضة لا تتجاوز سنها السادسة عشرة، كانت قبل شهرين أو ثلاثة تتفجر حياة، وتسطع فتنة، وترفل بأزهى حلل السعادة والهناء. كيف

يستطيع الإنسان أن يوفق بينها وبين تلك الأكمة من التراب وذلك الصليب الخشبي؟ أممكن أن تكون هذه هي نفس هذه الفتاة التي تشع عيناها بالخلود الأزلي من هذا الإطار النحاسي؟ وكيف يستطيع الإنسان أن يجمع بين هذه الطلعة المشرقة الوضاءة وتلك الحادثة الفظيعة التي توافق الآن اسم (اولجا مسجرسكي)؟ رحماك يا رب! إن هذا ليعجز الإفهام. . ولكن هذه المرأة القمئة الضئيلة الجسم سعيدة في قرارة نفسها، سعيدة كأولئك العاشقين الذين وقفوا حياتهم على حلم عاطفي جميل. .

هذه المرأة هي معلمة (أولجا) في المدرسة. فتاة أربت على الثلاثين، ظلت منذ زمن بعيد عائشة على هوس في قرارة روحها كان هذا الهوس أول الأمر ينتاب أخاها - وهو ملازم في الجيش ليس فيه ما هو جدير بالاهتمام أو قمين بالالتفات - كل روحها كانت معلقة به، متصلة بمستقبله بأمتن الصلات، اتصالا تتصور أنه لابد يوماً مود بها إلى أرض من أراضي عبقر. وبعد ذلك لما قتل أخوها في (موقدن) أقنعت نفسها بأنها - ويا للسعادة ولحسن الحظ - ليست كالأخريات، وإنها بدلاً من الجمال، وبدلاً من أن تكون امرأة حقيقية تتمتع بما للمرأة من أنوثة، بدلاً من ذلك لها عقل راجح، وفكر ثاقب، هو أسمى من هذه الدنيويات السافلة، هي عاملة من عمال المثل الأعلى.

وأولجا الآن محور أفكارها وخيالها ومبعث كل إعجابها وسرورها، في كل عيد أو عطلة أن تهرع إلى قبرها - وقد ألفت الذهاب إلى المقبرة بعد موت أخيها - تظل ساعات طوالا شاخصة إلى الصليب الخشبي. تذكر وجه (أولجا مسجرسكي) الشاحب المصفر وسط الأزاهير في النعش وتذكر أيضاً ما سمعته ذات مرة: ذات مرة في فرصة الغداء بينما كانت (أولجا مسجرسكي) تتمشى في بستان المدرسة تقول مسرعة عجلي لصديقتها الحميمة (سبوتين) الطويلة البادنة: (كنت أقرأ في كتاب من كتب أبي - وأن لأبي لكتباً قديمة لا تحصى، أكثرها غريب نادر فيه الوفير من المتعة وفيه الجزيل من اللذة - قرأت عن الجمال الذي يجب أن تمتلكه المرأة،

وما أكثر ما هو مسطور هناك، لست أذكره كله، لكنني أحفظ منه بعض الشيء؛ اسمعي: عينان سوداوان فاحمتان كالقار يغلي في جفنه، صدقيني، هكذا كان مكتوباً هناك... كالقاريغلي في جفنة!! حاجبان سوداوان كالليل البهيم، حمرة غضة تخضب الاهاب، قد اهيف، يدان أطول من المعتاد، قدمان صغيرتان، نهدان بارزان، ساقان مستديرتان متسقتان، ركبتان يحكى لون رضافهما لون داخل الأصداف. كتفان عاليان لكنهما منحدران - لقد كدت أحفظ أكثره غيباً، كله صحيح، ما أشده انطباقاً على الواقع، ولكن أتدرين ما هو أهم من كل هذا، هو النفس الرقيق الناعم اللين، وليس هو إلا هذا الذي أتنفسه أنا.... من الأعماق، أصغ إليّ، ألا تجدينه عندي!!.. أليس هو رقيقاً)

والآن قد تلاشى النفس الرقيق مرة أخرى في العالم، في ذلك اليوم الأشهب الغائم في ريح الربيع البادرة القارسة...

في المزرعة....

إيفان بونين

كان ذلك الوهج الوردي الفاتر المنبعث من الغروب الداوي يغادر السماء متلكئا متباطئا. وتوارى الضوء شيئا فشيئا بين جحافل الظلام التي أخذت تخيم فوق مزارع الغلال الفسيحة المترامية. ثم أمعنت تلك الجحافل في الزحف حثيثا على القرية. بعد أن أرسلت بعض النوافذ الصغيرة في جدر الأكواخ وميضا نحاسيا خالبا يستبي اللب. كان المساء هادئا ساكنا. قد حشدت قبل قليل قطعان الماشية في حضائرها، واحكمت دونها الرتج والإغلاق. وآب أهل القرية من عملهم المضني فتناول كل عشاءه على الحصباء قبالة أكواخهم ثم غرقوا في صمت ساهم عميق. لا صوت لغناء ولا صرخة لطفل.

كل شيء كان يحلم حلمه المسائي. وكان الكابتن ايفانيش وقد جلس إلى نافذته المفتوحة يحلم أيضاً.

كانت (عزبته) فوق رابية آجام واطئة من الاقاقيا والليلاك تحتها انجم كثيفة ملتفة مشتبكة من القراص والحماض تنحدر إلى اسفل في اتجاه الوادي. ومن النوافذ تستطيع العين ان تقطع مسافات شاسعة فوق تلك الأيك والإحراج البالغة مكانا قصيا.

كانت الحقول ساكتة صامتة تحت ذلك الغسق الشاحب، قد انقطعت فيها الحركة. والهواء جافا دافئا عليلا. والنجوم في السماء ترتجف بإستيحاء وفي غموض مبهم كأنما تخفي في باطنها أسراراً لا تدرك وأحاجي لا تحل.

ليس هناك تحت النافذة إلا بضع جنادب دائبة في صريرها المتشابه من غيركلل ولا ملل، وهي في مكامنها تحت عساليج القراص وإلا صيحات السماني المتزنة الآتية من السهل النائي البعيد.

كان الكابتن ايفانيش وحده، كدأبه دائما. لقد كتب له أن يعيش وحيدا يقاسي آلام الوحدة ما بقي حياً.

كان أبواه لا يملكان شيئا، يعيشان في بيت الأمير (نوكايسكي) ماتا إبان طفولتهولما يبلغ من العمرسنة واحدة. قضي أيام طفولته وفتوته في بيت عمة له مخبولة وفي مدرسة أبناء الجنود. كان في شبابه ينظم الأغاني ناسجا فيها نسج ديلفك وكولتسوف. نظم في قصائده الغرامية الكثيرعن (هي) المعهودة.

وما كانت (هي) المعهودة إلا (آنا) ابنة موظف في مكتب (تسجيل العقود) في القرية، لكنها ما كانت تحبه كما يحبها. كان اهل القرية يقولون عنه انه يشبه (السيد) ولكن ليس فيه شيء يسترعى النظر.

هو نحيف طويل بعض الشيء. قد صاريوما بتأثير الأمير ملازما في الجيش ثم ورث عن عمته نقودا واستقال من وظيفته أما (هي) فقد ذهبت لتقيم في بيت صديق لها وتزوجت واقفل هو مكتبه على قصائده الغرامية حيث ظلت وستظل إلى يوم موته.

أنشأ يشتغل بالزراعة وحاول العمل في مكتب الحكومة في القرية ولكن لم يسعفه الجد.

ومرت الأيام وانقضت الشهور وتعاقبت السنون، واصبح فلاحا حقيقيا: سترة طويلة تصل إلى ركبتيه وشاربان طويلان أسودان، على انه ما كان يعلم إن وجهه المنضمر المغضن بعض الشيء وما كان يعلوه من إمارات الحنو كان جميلا جذابا.

انه اليوم حزين مكلوم. وجاءت إليه في الصباح خادمة (اكرافية) التقية الورعة وذكرت له بين ما حدثته به (أتذكر السيدة (آنا) يا سيدي؟

- فأجابها الكابتن ايفانيش. نعم

فقالت له ماتت ودفنت في خلال أيام الصوم.

وبعد هذا لبث الكابتن ايفانيش طول يومه مرتسمة على شفتيه ابتسامة مضطربة غامضة. وفي المساء، وما أهدأ ذلك المساء وما اشده سكونا، وما أعمقه كآبة - لم يتناول عشائه ولم يذهب إلى فراشه مبكرا كعادته. بل تناول في يده لفافة غليظة من تبغ اسود

قوي وظل جالسا إلى نافذته واضعا ساقيه الواحدة على الأخرى.

أراد أن يخرج من البيت ويذهب إلى مكان ناء، ولكنه سال نفسه: إلى أين؟!. أيذهب لصيد السمان؟ ولكن لم يبقى وقت لذلك، ثم ليس هناك من يرافقه. أيذهب؟ أم لا... لم يرق له صيد السمان. تنهد وخبط بيده ذقنه غير الحليق.

ثم قال في نفسه (ان حياة الإنسان لقصيرة ضنينة).

أترى الحقبة طويلة من يوم كان فتى في ميعة الشباب حتى الآن مدرسة أبناء الجنود - حسنا إنها ولت... إلى حيث لا رجعة. .. قروسغب ولغب - أسفار إلى عمته، ما أغربها من عمة. ما اشد شذوذها وغرابة أطوارها. هو يتذكرها جيدا، حتى لكأنها الآن ماثلة أمام عينيه - عجوز بكر هيفاء نحيلة. لها شعر اشعث، اسود فاحم، وعينان دعجاوان شاردتان ذاهلتان. كان يقول عنها أهل القرية إنها قد أصابها الخبل من حادث غرامي لم توفق فيه... هو يتذكر كيف كانت تحفظ جيدا بعض أساطير فرنسية جريا على عادة كانت في ذلك الحين متبعة في مدرسة ليلية من طراز قديم، وكيف كانت تكررها مرة بعد أخرى. ويذكر أيضا كيف كانت تضرب على البيان لحن (بولوني أوكينيكسي). لقد كانت تلك الأغنية تبدو مخيفة غريبة، لأن السيدة العجوز كانت تغنيها من غير عاطفة ولا شعور.

أوه - تلك الأغنية (بولوني أو كينيسكي)... (هي) المعهودة أيضاً كانت تحسن غناءها وعزفها على البيان.

والآن أخذت النجوم في السماء تبعث بصيصا ضئيلا من نور خافت وتتلألأ تلألؤاً سحرياً لا تدركه الأفهام.

وطفقت الجنادب تسبح بصريرتها تسبيحتها الواهنة الوانية، لا تلبث تفترحتى تهتاج من جديد في هدوء المساء وسكون الطبيعة. هناك بيان عتيق. هناك في تلك الغرفة الداخلية. النوافذ مفتوحة لولا أن (هي) المعهودة تدخل الآن في الغرفة، خفيفة الظل كالطيف وتعزف عليها، تمس مفاتيحها العتيقة المغبرة... ومن ثم يذهبان معا إلى هناك... إلى هناك باستقامة واحدة... يمران من تلك

الطريق الضيقة بين الجويدار الكثيف. إلى اين... إلى بعيد، حيث الضوء ينبعث في الأفق الغربي.

كبح الكابتن ايفانيش جماح أفكاره وابتسم قائلا بصوت مرتفع (لقد ذهب الخيال معي إلى بعيد...)

كانت الجنادب تصدح بإنشودتها في نسيم المساء الهادئ البليل ومن البستان يعبق شذا الأرقطيون المحمل بالطل. وأريج زهرة الفجر ورائحة القراص المخضل المنعشة. فتختلط كل هذه الأرواح العطرة في الفضاء وتتجه شطر الأنوف كأنما تنتوي نية أو تبغي بغية... هذه العطور الزكية ذكرته بمساء كان قد رجع فيه من المدينة في ساعة متأخرة؛ وكيف ظل يفكر (عنها) يخدع نفسه ويمنيها بآمال السعادة والهناء...

ما كنت ترى في القرية نافذة تشع، ساعة ساق عربته إلى أعالي الرابية. كل شيء تحت تلك القبة السماوية الصاحية السلسبيل الزاخرة بالكواكب كان غارقا في سبات عميق... ليالي إبريل مظلمة دافئة من البستان كانت تفوح رائحة الكرز المزهر. والضفادع تنق وسنانة في البرك - فتبعث بموسيقى ضعيفة هزيلة من النوع الذي يسمع عادة في آخر هزيع من ليالي الربيع عندما يدنو الصباح. ظل زمناً طويلاً قبل أن يعقد أجفانه الكرى، استلقى في نومة عميقة فوق الحلفاء في الكوخ بالبستان. قد لبث ساعات يمشي الهوينى على سراب جار تحول من بعد إلى سحابة بيضاء شفافة متألقة من الأحلام البعيدة النائية. ولكن هناك جاءت من بركة ليست في الحسبان بعد حين صيحة مالك الحزين - كأنها لغز أو سحر، والظلام الحالك - الظلام الذي ضرب بجرانه فيطرقات البستان الضيقة هو أيضاً بدا كاللغز أو السحر. وبعد ذلك، قبيل الفجر فتح عينيه واستنشق ملأ رئتيه نسمات البستان الندية الباردة المحملة بالعطر. ومن خلال الكوة المفتوحة قليلاً أطلت عليه نجوم الصباح اللامعة مضطربة قلقة. استفاق الكابتن إيفانيش من هواجسه واستوى قائماً. وراح يطوي أرجاء الدار ترجع الجدر أصداء خطواته، وينحني بلاط الغرفة هنا وهناك تحت قدميه

مرسلاً صوتاً متزناً كأنما هو يئن تحت وطئهما أنين الألم.

(ثمانون عاماً عمر هذه الدار) قال في نفسه (لأستدعين الفعلة في الخريف سيكون البرد فيها في الشتاء المقبل قارساً لا يطاق). وفيما كان يتمشى جيئة وذهاباً كان يشعر إنه أضحى الآن أعجف سمجاً - هو طويل نحيل منحني بعض الشيء. ظل كذلك يجيء ويغدو ثم رفع حاجبيه وهز رأسه وغنى الغناء (البولوني). أحس إنه يرقب خطواته الخاصة - ينظر إلى نفسه - فقدم نفسه إلى نفسه على إنها رجل آخر يهيم في أرجاء الدار- رجل حزين قد أمضه الحزن وأرمضتقلبه الكلوم. حمل كنانته وخرج من الدار.

كان الضوء خارج الدار أكثر من داخلها، ولا يزال ضوء الغروب الشاحب الذي توارى خلف القرية يرسل على مزارعها بصيصاً ضئيلاً باهتاً. وبخطوات ثقيلة مرتبكة جاز رقعة من الأرض مفروشة بفراش من القراص انتهى منها إلى رابية وقف عندها. وبعد أن أشعل غليونه وقف على صخرة هناك ثم قال في نفسه (أراني جالساً كالبوم على سفح الجبل) وسيقول الفلاحون عني هناك. . . إن الشيخ لا عمل له. . . نعم لقد أمسيت عجوزاً (ألم تبت (أنا). . . حتى لكأنها لم تكن) أين ذهب كل ذلك. . . كل ذلك الماضي.

كم ظل محدقاً ببصره في الحقول النائية كم ظل مصيخاً بسمعه إلى هجعة الطبيعة وسكنة المساء. . .

قال بصوت مرتفع (كيف يمكن ذلك؟!) كل شيء سيبقى على حاله. الشمس تشرق. الفلاحون يخرجون إلى الحقول حاملين على أكتافهم محاريثهم عاليها سافلها، وسوف لا أرى من ذلك شيئاً - وليس هذا فحسب، بل ولن أكون في هذا المكان أبداً ولو مرت ألوف السنين، لن أعود إلى الدنيا مرة أخرى، لن أجلس جلستي هذه على هذه الرابية. .

لبث زمناً طويلا جالساً جلسته تلك، مطرقاً يسحب شاربيه الأشيبين ويعبث بشعراتهما.

ترى كم من السنين كان الرجل الذي أمامه الآنشيئا خطيراً

openkanal.com

- بارزاً. . لقد كان ذات مرة صبياً صغيرا - وكان شاباً يافعاً - ثم هو في يوم قائظ لافح من أيام الصيف قصد بعربته الصغيرة إلى الانتخابات. . . ماراً من طريق عريض رحب.

ما أعرض ذلك الطريق!. . .

ابتسم الكابتن ايفانيش إلى نفسه من أفكاره التي تتواثب من شيء إلى آخر.

لكن ذلك كله كان منذ زمن بعيد. . . ممعن في البعد. . . كذلك.

أواه! ماذا يرى الآن أمامه يا لهول ما يرى! قد بلغ زمنا هو كما يقول الناس يصل فيه كل شيء نهايته. سبعون، ثمانون عاماً لا يقدر الإنسان أن يعمر أكثر من هذا - ما هي الحياة البشرية - طويلة كانت أم قصيرة.

قال في نفسه: (إن حياتي طويلة على كل حال)

هناك في ظلمة السماء أضاءت نجمة وخرت إلى الأرض. رفع عينيه الحزينتين الكليلتين، وظل يحدق في السماء. وفيما هو يرسل بنظراته في أعماق تلك اللانهاية المظلمة الهادئة الزاخرة بالكواكب، تنهد الصعداء وشعر بالحزن يذهب عن نفسه، لقد عاش هادئاً مطمئناً وسيموت هادئاً مطمئناً. كالورقة في تلك الأيكة تجف وتسقط متى يحين أوانها، إيه، لكل أجل كتاب.

لا تكاد الحقول المترامية ترى في ظلمة الليل الحالكة. اشتدت الظلمة وزاد لألاء النجوم. وبين الفينة والفينة تسمع صيحات السماني، وأخذت تنبعث من العشب الندي رائحة منعشة، استنشق الهواء بخفة، وبسهولة ملأ رئتيه، ما أشد اتصاله بهذه الطبيعة الهادئة الساكنة!

books4arab.com

الكذب.....

نيكولا يفتش اندريف

(أنت كاذبة! أنا أعرف أنك كاذبة!).

(لماذا تصيح هكذا. .؟ أمن الضروري أن يسمعنا كل إنسان؟).

وكذبت مرة أخرى فما كنت أصيح كما ادعت، وإنما كنت أتكلم على أتم هدوء ورقة. أمسكت بيدها وأخذت أحدثها في لين هادئ، والكلمة السامة: (كذب) تفح حولي فحيح الحية الصغيرة.

(واستطردت تقول: (أحبك. . . ويجب عليك أن تكون على ثقة تامة بي. . ألا يقنعك هذا؟) وقبلتني. . ولكني لما أردت أن أطوقها بذراعي وأضمها إلى صدري لم أجدها: كانت قد أفلتت مني وبارحت الممر المظلم، فتبعتها إلى الغرفة التي أخذ الحفل البهيج فيها يقوض خيامه، ومن أين لي أن أعرف - في مكان كهذا - أين أنا! لقد طلبت مني المجيء إليه فجئت، ورأيت القوم يدورون حولي مثنى مثنى طول الليل. وما تقدم إلى أحد ولا خاطبني إنسان. كنت هناك غريباً عن كل الناس، جلست في ركن يقرب من العازفين على الآلات الموسيقية وفم البوق النحاسي الضخم يوجه في خط مستقيم إلي. . . وسمعت في ناحية شخصاً سجيناً يزمجر ويضحك بعد كل دقيقة في هزة وخشونة ويصيح:

(هو. . . هو. . . هو. . .).

وكانت تقرب مني من حين إلى حين سحابة بيضاء عطرة. كانت هي. . ولم أكن أدري كيف دبرت بمهارة فائقة ملاطفتي وهي متقية أعين الناس، ففي ثانية خاطفة ضغط كتفها على كتفي، وفي لحظة قصيرة خفضت بصري فاستطعت أن أرى الجيد الأتلع والدثار الأبيض الضيق العروة. . ولما رفعت طرفي رأيت جانب الوجه الأبيض الصارم الهادئ كوجه الملاك المفكر فوق مقابر

الموتى، فوق مقابر المنسيين من الموتى، رأيت عينيها. . . كانتا نجلاوين ساكنتين حبيبتين تتعطشان للنور. . تحف بهما دائرتهما الزرقاء، وقد برق فيهما إنساناها في قتامة. وكنت كلما نظرت إلى هاتين العينين أراهما على حال واحدة لا تتغير: سوداوان عميقتان لا يدرك كنههما، وإذا ما نظرت إليهما ولو نظرة قصيرة اشتد وجيب قلبي، ولكني لم أشعر قط بمعنى اللانهاية بمثل هذا العمق وهذا الخوف الذي شعرت به الآن؛ ولم أعرف مطلقاً قوتها كهذا الحد القوي الجارف. شعرت خائفاً متألماً أن حياتي كلها غدت كشعاع ضئيل من النور ابتلعته عيناها، حتى أصبحت غريباً عن نفسي فارغاً أجوف غالباً في عداد الموتى. . . ثم بارحتني وخلفتني وحيداً وأخذت معها حياتي. . حياتي كلها، ورقصت ثانية مع رجل وضيء الوجه طويل متعجرف، أخذت في انقباض وحزن أنعم فيه البصر وأدرس أجزاء جسمه، وشكل نعليه، وعرض كتفيه المرتفعتين، وخصل شعره المتموج المنتظم. والرجل بنظرته غير العابئة ولا المكترثة ولا الباصرة يلصقني بالحائط، أصبحت في نظره مخلوقاً تافها كالحائط نفسه.

ولما أطفأت الشموع تقدمت نحوها وقلت:

(حان وقت العودة. . سآخذك إلى المنزل).

فاستغربت وقالت: (ولكني. . . ذاهبة معه!).

وأشارت إلى الرجل الطويل الجميل الذي لم ينظر إلينا مطلقاً ثم جرتني إلى غرفة خالية من الناس وقبلتني. فقلت بهدوء ورقة:

(إنك كاذبة).

فأجابت: (سنتقابل اليوم. . . لا بد أن تجيء. . .).

ولما ركبت العربة إلى المنزل، كان الصباح الضبابي الأخضر قد لاح فوق السطوح العالية، ولم يكن في الشارع كله إلا أنا وسائقي؛ وجلس الرجل متجمعاً يخبئ وجهه من الريح، وأنا جالس خلفه منكمشاً في معطفي ومغطياً وجهي حتى عيني. وكان للسائق أفكاره ولي أفكاري، وخلف الجدران الكثيفة المحيطة ألوف من الناس يغطون في النوم سابحين في أحلامهم وأفكارهم. . . فكرت فيها، وفي

أكاذيبها، وفي الموت الرهيب، وبدا لي أن هذه الجدران المحيطة بعد أن أضاءتها تباشير الصباح، كانت تنظر إلي كمخلوق ميت. وهذا هو السبب الذي جعلها جامدة معتدلة هكذا. ولم أكن أعرف في أي شيء يفكر السائق، ولم أكن أدري ما الذي يحلم به أولئك المختفون وراء الجدران، ولا كانوا هم يعرفون ما أفكر فيه وأحلم به...

وعلى هذا المنوال من التفكير والسكون والتأمل زحفنا في الشوارع الطويلة المستقيمة، بينما يفضض نور الصباح أعالي السقوف، وكل ما حولنا كان أبيض ساكناً. وقربت مني سحابة بيضاء عطرة... وأخذ إنسان سجين يضحك عند أذني ويصيح:

(هو... هو... هو...).

لقد كذبت. لم تبر بوعدها ولم تجيء، وكان انتظاري قدومها عبثاً، كان وهما باطلاً وأملاً خائباً... وأخذ الغبش يهبط من السماء القاتمة أشهب بارداً متجمداً... ولم أعد أعرف متى يتحول الغبش إلى مساء، أو متى ينقلب المساء ليلاً أسود. فكرت فيه كله كليل طويل حالك فوقه ليل، وأخذت دائماً، بخُطى الانتظار المنتظمة الرتيبة، أروح وأجيء في الطريق، ولم أشأ أن أقرب من منزل حبيبتي الشاهق، ولا من الباب الزجاجي الأمامي الذي بدا لي شاحباً في ظل سقفه الحديدي، ولكني رحت بنفس الخطى المنتظمة أذرع الجانب الآخر من الشارع. رائحاً غادياً... رائحاً غادياً... وعندما كنت أواجه المنزل لا أستطيع أن أنزع عيني من الباب الزجاجي، فإذا ما بعدت عنه كنت غالباً أقف وأدير رأسي وأسارقه الطرف، وهنا يخز الثلج الساقط وجهي بوخزاته الحادة... كانت هاته الإبر الثلجية طويلة نافذة، حتى إنها نفذت إلى قلبي ومزقته وهو المعني بالشوق المضني والانفعال الشديد للانتظار الخائب! وهبت الريح الباردة من الضوء في الشمال إلى الظلام في الجنوب، وصفرت وعوت، ولعبت على السقوف المتجمدة وخلصت نفسها منها وضربت وجهي بسفعات حادة من الندف الثلجية، وخشخشت كما يخشخش الرمل على مصابيح الشوارع الفارغة حيث يرتجف

اللهب الأصفر ويقضقض من البرد وينحني أمامها. كم أسفت على هذا اللهب المنفرد الذي يعيش في الليل فقط، وفكرت في الحياة التي ستقف حركتها في الشارع بعد لحظات، وفيّ بعد أن أغادر المكان وتبقى الندف الثلجية تهطل وتضربه بضرباتها، واللهب الأصفر يستمر راجفاً منحنياً في كنف الوحدة والبرودة المحيطة به.

انتظرتها فلم تجيء. وبدا لي أني وهذا اللهب المنفرد متشابهان، وكل ما بيننا من خلاف أن مصباحي لم يكن فارغاً كمصباحه، وأخذ الناس يظهرون من وقت لآخر في المكان الذي ذرعته بخطواتي يكبرون في صمت وسكون، ويتضخمون ورائي، ويبدون سوداً ضخاماً حذائي، ثم يختفون فجأة كالأشباح السنجابية حول ركن بيت أبيض قائم هناك، ثم يقدمون ثانية نحوي من حول الركن ويذوبون في المسافة الرمادية المفعمة بالثلج الصامت المتحرك مدثرين في معاطفهم الضخمة حتى انعدمت أشكالهم واختفت أجسامهم، سائرين صامتين على غرار واحد يشابهوني، وفكرت في أن رهطاً من هؤلاء الناس كانوا يمشون مثلي رائحين غادين منتظرين مترقبين راجفين في صمت. . . . ويفكرون تفكيرهم المبهم الحزين.

انتظرتها فلم تجيء. . . ولم أدر لم أعول وأذرف الدمع السخين وأرسل العبرات الغزار؟ لم أدر لم أبك في ألم وحزن؟ لم أدر لم ضحكت وكنت سعيداً جذلاً طروباً؟ قبضت أصابعي إلى راحتي بقوة كأنها المخالب، وتخيلت أني أقبض بشدة على المخلوق السام. . . . الحية. . . . الكذب. . . . فالتفت علي ذراعي وعضت قلبي وأصابني من سمها الزعاف الدوار الشديد. بدا كل ما حولي أكاذيب مجسمة، وانمحى الحد الفاصل بين الحاضر والمستقبل، بين الحاضر والماضي، انمحى الحد بين الوقت الذي كنت فيه في غيابات العدم، والوقت الذي بعثت فيه في هذه الحياة الدنيا. . . . . . وفكرت في نفسي - سواء وجدت أو لم أوجد - كانت أبداً قبل أن أوجد وبعد أن وجدت متسلطة على كياني وجثماني. ومن

الغريب علي أن أفكر في أن لها اسماً وجسماً وأن لكيانها ووجودها نهاية وبداية. . . ليس لها اسم مطلقاً، وإنما كانت دائماً المخلوقة الكاذبة، والتي تعد ولا تفي بوعدها أبداً. . . لم أدر لماذا هكذا. ولكنني ضحكت، وغاصت الإبر الحادة في قلبي، وضحك عند أذني إنسان سجين:

(هو. . . هو. . . هو. . .).

وفتحت عيني ورأيت نوافذ المنزل الشاهق المضيئة، وأخذت النوافذ تحدثني بألسنتها الزرقاء الحمراء بكل هدوء:

(إنها تخونك في هذه اللحظة، فبينما أنت تتجول ذارعاً الأرصفة مترقباً حضورها معذباً كئيباً، إذا بها وكلها جمال ونور وإشراق. . . وخيانة، جالسة هنا تسمع همسات الرجل الصبوح الطويل الذي احتقرك وازدراك. إنك إذا اندفعت إلى داخل المنزل وقتلتها ستعمل عملاً عظيماً. لأنك ستقتل الكذب).

وقبضت يدي بشدة وقد أمسكت بسكين وأجبت ضاحكاً:

(أجل. . . سأقتلها. . .).

ولكن النوافذ نظرت إلي بوجوم وقالت في حزن:

(إنك لن تقتلها أبداً. . لأن الآلة التي في يدك هي الكذب بعينه، كقبلاتها تماماً).

واختفت الظلال المترقبة الصامتة وبقيت وحيداً في هذه البقعة الباردة، أنا وألسنة اللهب المنعزلة التي ترجف من البرد والخيبة. . وأخذت الساعة في قبة الكنيسة القريبة تدق، وكان صوتها المعدني الحزين يرتجف وينتحب ويتمدد. ويفقد نفسه في الثلج المدوم المجنون الهاطل؛ وأحصيت الدقات وضحكت، دقت الساعة الخامسة عشرة. كانت قبة جرس الكنيسة قديمة بالية كساعتها. ومع أن الساعة كانت سائرة على منوال حسن، فإنها كانت تدق غالباً أكثر من اللازم، حتى إن الرجل العجوز الذي كان يحركها صعد إلى القبة ليقف بيديه اللسان الضارب. علام كانت تكذب هذه الأصوات الراجفة الحزينة التي يخنقها الظلام الضبابي؟

وانفتح الباب الزجاجي مع آخر دقة كاذبة للساعة، وهبط الرجل الطويل نفسه الدرجات. وعلى الرغم من أني رأيت ظهره عرفته لأني كنت قد شاهدته أمس بوقاحته وغطرسته. . . عرفت مشيته وكانت اليوم أخف حركة وأكثر ثباتاً منها بالأمس. . لقد غادرت من قبل هذا المنزل كما غادره هذا الرجل الآن. إنها الطريقة التي يمشي بها الرجال الذين لا تزال على شفاههم قبلات المرأة الكاذبة.

هددت. . . رجوت. . . قضقضت بأسناني. . .

(قولي الحقيقة. . .).

فسألتني، ووجهها جامد كالثلج، وحاجباها مرتفعان في استغراب، ومن عينيها يطل إنسانان سوداوان سرّيان هادئان، لا يسبر غورهما:

(ولكن. . . هل كذبت عليك؟).

وكانت تعرف أني لا أستطيع البرهان على كذبها، وأن كل أبحاثي وأوهامي وجهودي في معرفة الحقيقة ستذهب هباء بعد كلمة واحدة منها. . . كلمة كذب واحدة. . . ولقد ترقبت هذه الكلمة وندت عن فمها أخيراً، وظاهرها يتلألأ بالصدق على أن باطنها كان مظلماً قاتماً. . . (أحبك. . . ألست كلي لك؟).

وكنا بعيدين عن المدينة، والحقول المغطاة بالثلج ترنو إلى النوافذ المظلمة، وفوقها الظلام مخيم، وحولها الظلام جاثم، الظلام الكثيف الجلد الصامت الساكن، ولكن الحقول كانت تلمع بضوئها المكتنز كوجه جثة في الظلام. . . وأضاءت شمعة واحدة في الغرفة الرحبة الشديدة الحرارة، وعلى ضوئها الأحمر انعكست الحقول الميتة. . .

(أود أن أعرف الصدق، بغضّ النظر عما يسببه لي من حزن؛ ربما مت بعد سماعه. . . ولكن خير للمرء أن يموت من ألا يعرفه. أرى الكذب يطل من عينيك. قولي الصدق، وسأذهب بعد ذلك بعيداً عنك إلى الأبد).

ولكنها كانت صامتة، والنظرة التي في عينيها، النظرة الجامدة المتفرسة نفذت إلى سويداء قلبي وأخرجت أعماق نفسي وأبدتها

obeikandl.com

للعيان. . . وأخذت بفضول غريب أمتحنها وأنعم النظر فيها، ثم صحت بها:

(أجيبي. . . وإلا قتلتك!).

فأجابت بهدوء: (اقتلني. . . بعض الأحيان يضيق المرء ذرعاً بالحياة. . . هل تستطيع الوقوف على الحقيقة بالتهديد؟!).

فجثوت على ركبتي وضغطت على يدها، وأخذت أتوسل إليها وأرجوها أن ترحمني وتقول الصدق.

فقالت، وقد وضعت يدها على شعري: (مسكين. . . مسكين. .).

فرجوتها: (ارحميني. . . أود الصدق. . . أتلهف عليه. . .).

ونظرت إلى جبينها الناعم، وفكرت في أن الصدق الصراح هنالك. . وراء هذا الفاصل الرقيق، فوددت بجنون لو هشمت جمجمتها لأراه، وهنا تحت هذا الصدر المرمري الأبيض كان قلبها ينبض، فوددت لو مزقت هذا الصدر بمخالبي لأرى ولو مرة القلب البشري العاري. . . وكان لهب الشمعة المحدد كالسنان يشتعل بعيداً ساكناً لا يتحرك، والجدران المظلمة قد غابت في القتامة المحيطة، كان كل شيء يبعث على الأسى والوحشة والرعب.

وقالت: (مسكين. . . . مسكين).

وارتعش اللهب الأصفر وتشنج، وضرب لونه إلى الزرقة، ثم تمايل واحتضر. . . وطوانا الظلام في جوفه، ولم أعد أستطيع أن أرى وجهها ولا عينيها؛ وكانت ذراعاها تطوقان رأسي. . . لم أعد أحس بالكذب، وأغمضت عيني وغدوت لا أفكر. . . ولا أعيش في هذه الدنيا. . . وإنما فنيت بكليتي في لمسات يديها، في الإحساس اللذيذ، في النشوة العجيبة التي هيمنت على حواسي ومشاعري، وبدا الصدق في عملها هذا ووضح وبان. . وجاء من أعماق الظلام همسها وانياً غريباً مخوفاً:

(ضمني إليك. . أنا خائفة. . .).

وخيم الصمت ثانية. . . ثم همست مرة أخرى في صوت خافت جازع:

(إنك تود الصدق. . . وهل أنا أعرفه؟ حتى أنا. . . أود أن أعرفه.

obeikandi.com

.. احمني... أوه... أي رعب!!).

وفتحت عيني وقد أخذ الظلام الشاحب يهرب من النوافذ العالية، ويتجمع على الجدران، ويختبئ في الأركان، ولاح من النوافذ شيء ضخم في بياض الموتى... كأن عين إنسان ميت تبحث عنا... كأن شخصاً ضمنا في قبضته الباردة... فالتصق كلانا بالآخرونحن نرتجف، وهمست:

(أوه...... ما أفظع هذا!).

لقد قتلتها!...

قتلتها... ولما تمددت كتلة بشرية لا حس ولا حركة على النافذة ووراءها الحقول البيضاء تمتد وتتشعب وضعت قدمي على جسمها وانطلقت أضحك، وأقهقه... ولم يكن ضحكي ضحك المجنون، لا... لقد ضحكت لأن أنفاسي خلصت وصدري استراح، ولأن في أعماق نفسي السعادة والسلام والفراغ...

لقد انمحت من قلبي الدودة التي كانت تنخره، وانحنيت وأخذت أتطلع إلى العينين الميتتين، عينان نجلاوان تتعطشان للنور، بقيتا مفتوحتين شبيهتين بعيني تمثال من الشمع، العيون المستديرة القاتمة التي تبدو مغطاة (بالميكا) أستطيع الآن أن ألمسها بأصابعي، وأفتحهما وأسبهما ولا أرهب شيئاً ما، لأن شيطان الكذب والشك مات من هذين الإنسانين السوداوين المبهمين إلى الأبد، مات من هذين الإنسانين اللذين كثيراً ما ارتويا من دمي.

ولما قبضوا عليّ انطلقت أضحك جذلاً، وكل من رآني عد فعلتي عملاً وحشياً مرعباً؛ كانوا يديرون ظهورهم نافرين متراجعين، وأخذ بعضهم وقد روع يوجه إلي ضروب اللوم والتعنيف الشديد، على أنهم لما بصروا بحالي المرح الطروب، شحبت وجوههم، وسمرت أقدامهم، وقالوا: (مجنون).

ويبدو لي أن هذه الكلمة هدأت ثائرتهم وأقرت هائجهم، لأنها أعانتهم على حل اللغز. كيف وأنا المحب الوامق أقتل عشيقتي، وفي الوقت نفسه أضحك؟ على أن رجلاً بادنا أحمر الوجه طروباً سماني اسماً آخر. ولشد ما ساء ني منه هذا حتى اسود في عيني

النور، النور الذي كان أمامي.

(مسكين. . .) قالها في عطف لا تشوبه المرارة، لأنه كان بادناً طروباً:

(مسكين).

فصحت في وجهه: (لا تقل هذا. . . . . لا تسمني بهذا الاسم).

ولم أدر لم صحت في وجه الرجل، ما كنت بالطبع أرغب في قتله، ولا حتى في لمسه، ولكن القوم الذين أذهلهم الحادث وأخذوني كمجنون ومجرم، انقلبوا أكثر رعباً وفزعاً، وصاحوا بطريقة جعلتني أضحك مرة أخرى.

ولما قادونيبعيداً عن الغرفة التي تمددت فيها الجثة قلت ثانية في صوت عال ملتفتاً إلى الرجل البادن الطروب:

(أنا سعيد. . . أنا سعيد).

وكان هذا حقاً.

رأيت مرة في صباي نمراً أرقط في حديقة الحيوانات، لفت نظري وشغل تفكيري، لم يكن كالحيوانات الأخرى التي نامت في حماقة وأخذت ترمي الزوار بالنظر الشزر. وإنما مشى في قفصه في خط مستقيم من ركن في دقة حسابية عجيبة! كان في كل مرة يرجع إلى المكان الذي بدأ منه، وفي كل مرة يحك فروته الذهبية في حاجز القفص ورأسه الحاد المفترس مطأطئ، وعيناه تتطلعان إلى الأمام، ولم يتجه قط ينظره إلى الناس. . . والناس يتجمعون حول قفصه طول اليوم، متحدثين صاخبين، وهو يواصل تجولاته ولا ينظر إليهم مطلقاً. وقليل من الوجوه في هذا الحشد كنت باسمة، وكثرتها كانت عابسة بل حزينة وهي ترقب هذه الصورة البشعة وتتحول عنها بزفرة حارة. وعندما كانوا يبارحونه كانوا يلقون عليه نظرة فضولية أخيرة وهم عاجزون عن الفهم، ثم يصعدون الزفرات! كأن هناك شيئاً مشتركاً بين هؤلاء الرجال الأحرار وهذا الوحش السجين. وأخذت بعد ذلك كلما ذكر الناس الخلود وتحدثت الكتب عن الأبدية، أفكر في هذا النمر الأرقط، وأتصور أني أعرف الخلود وعذابه.

لقد غدوت في محبسي الحجري نمراً أرقط. . . سرت في المكان مفكراً على خط واحد في عرض محبسي من ركن إلى ركن، وفكري يتجول معي في خط قصير أيضاً. أفكار ثقيلة وطأتها علي، خيل إليّ بأني لا أحمل رأساً على كاهلي، وإنما أحمل الدنيا كلها على عاتقي. . وكانت هذه الأفكار تحوي كلمة واحدة ولكن ما أكبرها وأهولها كلمة. وما أعلقها بغيابات الأقدار!

(أكاذيب. . .) هذه هي الكلمة.

وأخذت هذه الكلمة تفح مرة أرخى من كل ركن، ثم التفت حولي. . ولكنها لم تعد حية صغيرة كما كانت، وإنما انقلبت ثعباناً ضخماً مفترساً تلمع عيناه. أخذ يلسعني بلسعاته. ولما صحت متألماً خرج من فمي صفير كريه. . . كصفير الثعابين، كأنما احتشد صدري بضروب الزواحف.

(أكاذيب).

مشيت غارقاً في أفكاري والأرض المقيّرة الناعمة الخضراء. . . غدت في عيني هاوية شفافة سحيقة مالها من قرار، وأصبحت قدماي لا تحسان ببرودة الحجر تحتهما، وتصورت نفسي أسبح في علو شاهق فوق الضباب والظلام، ولما خلص صدري من الزفرة السامة. . . من هناك. . . من القاع. . . من هذا الحجاب الرقيق الذي مع رقته لا تنفذ إليه العين، دوي يبطئ صدى مروع. . . كان الصدى بطيئاً جداً كأنه يعبر آلاف السنين، وهو في كل دقيقة وزفرة يفقد بعض قوته. أدركت بأن هناك في باطن القاع كانت الرياح الهوج التي تعصف بالأشجار تصفر. . . ولكن صفيرها وصل إلى أذني كأعقاب الأخبار السيئة تحمل في طياتها كلمة واحدة قصيرة:

(أكاذيب).

هذا الهمس الوضيع أخذ بمخنقي وحبس أنفاسي، فألصقت قدمي بالأحجار وصحت بأعلى صوتي:

(لم تعد هناك أكاذيب. . . بعد. . . لقد قتلت الأكاذيب).

وتحولت عامداً بوجهي لأني كنت أعرف أن الجواب سيجيء من أعماق الهاوية السحيقة. وكان الجواب:

(أكاذيب...).

أنت ترى أن الأمر هكذا... لقد ارتكبت خطأ جسيماً.

قتلت المرأة... ولكني خلدت الكذب. لا تقتل المرأة إلا بعد أن تنتزع - بكل وسائل التعذيب والنار والوعيد - الصدق من أعماق نفسها. فكرت في هذا وأنا أسير في محبسي من ركن إلى ركن.

لقد حملت معها الصدق والكذب إلى مكان مظلم مرعب... وهل أذهب إليه...؟ هل أذهب إلى هناك... وعند عرش إبليس سأقبض عليها وأجثو على ركبتي وأبكي وأقول:

(أريني الصدق).

رباه... رباه... هذا أيضاً كذب... الظلام هناك... وفراغ القرون... والخلود أيضاً... ولكنها ليست هناك... ليست في كل مكان... بقي الكذب... إنه خالد أزلي سرمدي... أحسست به في كل ذرة في الهواء... وعندما أنشقه أنشق معه في صدري الضعيف فحيح الثعابين فيمزقه... فيمزقه...

أواه... أي جنون عندما يطلب الرجل الصدق... وأي عذاب وألم؟

رباه... أنقذني...... أنقذني!!

obeikandl.com

obeikandl.com

الخادم...

ص. سيمونوف

عاد جيرسيم إلى موسكو في زمن كانت فيه البطالة منتشرة في البلاد، وكان يأمل أن يجد عملاً، إلا أنه مكث يبحث ثلاثة أسابيع دون جدوى! وقد آلمه أن يبقى عاطلاً عن العمل وهو لا يزال في عنفوان شبابه وكامل صحته، فمكث مع بعض أقاربه القرويين مدة وجيزة عله يجد عملاً. كان جيرسيم قد قضى حداثته خادماً في أحد البيوتات، ثم اشتغل خادماً لأحد التجار إلا أن الخدمة العسكرية أجبرته على ترك عمله، ولما انتهى تدريبه عاد إلى موسكو، فآلمه أن يجد عمله منتهياً، وكانت كل ساعة تمر عليه يحس بها كيوم، إذ أن شوارع المدينة كانت قد أسأمته لكثرة تجواله فيها عبثاً، وكان يستوقف الناس في الشوارع ويسألهم عن إيجاد عمل له ولكن دون جدوى. وأخيراً شعر بأن أقاربه قد سئموا منه وشعر بأنهم يستثقلون ظله لكثرة التردد عليهم فآثر الابتعاد عنهم، مفضلاً الجوع والارتماء في الشوارع.

التقى جيرسيم في أحد الأيام بأحد الأيام أصدقائه وكان يسكن في ضواحي موسكو قرب سوكولنك ويعمل حوذياً لتاجر غني يدعى شاروف منذ مدة طويلة كان فيها مثال الرجل المخلص الأمين في عمله، فأحبه شاروف وأولاه ثقته التامة لاخلاصه وتفانيه في العمل وجعله مسئولاً عن جميع خدمة ولما وقعت عيناه على صاحبه حياه بحرارة ورجا منه أن يجد له عملاً فقد مكث مدة طويلة عاطلاً فسأل (ياجور) صديقه وهل رجعت غلى التاجر الذي كنت تعمل عنده ليعيدك إلى العمل؟

- أجل لقد رجعت إليه ولكنه كان قد أحضر شخصاً آخر بدلاً مني!

- وهكذا أنتم أيها الشباب لا تخلصون في أعمالكم وتكون عاقبتكم وخيمة وكان من الخير لكم أن تخلصوا في عملكم تكسبوا محبة رؤسائكم.

- نعم القول ما تقوله يا صديقي، ولكنك تعلم إن الإنسان ليس معصوماً من الخطأ وأنه ليس ملاكاً. فدعنا من هذا اللوم الذي لا يجدي نفعاً، وقد عهدك الصديق المحب للخير. فأرجو أن تجد لي أي عمل فأكون لك من الشاكرين! فابتسم ياجور من هذا الثناء وشكره على ذلك وطلب منه الانتظار قليلاً. . . رجع يا جور واخبر صديقه بأن سيده سيسافر إلى بلدته بعد نصف ساعة وأنه أعد الخيول لذلك وقال له:

- أترغب في أن تعمل خادماً معي عند شاروف؟

- وهل يريد السيد شاروف خادماً؟

- أجل إن خادمه السابق قد بلغ من الكبر عتيا وهو لا يقوى على أداء عمله.

أكون شاكراً لو تمكنت من إيجاد عمل لي إذ لا أستطيع أبقى طويلاً عاطلاً عن العمل.

- حسن! سأتحدث مع شاروف في هذا الموضوع فاذهب الآن عد غداً لأخبرك بما تم. فشكره على ذلك وسار في طريقه. . .

. . . أعد يا جور الخيل وارتدى ملابس الحوذية المعتادة وساق العربة إلى الخارج، وكان شاروف جالساً في العربة يسرح الطرف في مزارعه الواسعة وأمارات الغبطة مرتسمة على محياه، ولما رآه يا جور علة هذه الحالة وجد الفرصة سانحة ليحدثه عن صديقه فقال له:

- إن لي صديقاً في مقتبل العمر يا سيدي. وهو يرجو أن تجد له عملاً فقد مكث ردحاً من الزمن عاطلاً.

- حسن، ولكنك تعلم أنه لا عمل عندي.

- إن صديقي يجيد جميع الأعمال التي يقوم بها (بولكرتش) الذي أصبح مسناً لا يقوى على العمل!

- لا أستطيع ذلك فقد مكث خادمنا مدة طويلة وأفنى زهرة

شبابه وهو يعمل عندنا وهو يعمل عندنا ويقوم بخدمتنا خير قيام وليس من العدل أن أطرده من عمله دون ذنب جناه.

- أنه ولا ريب قد ادخر بعض النقود التي يمكنه أن يعيش بها الأيام الباقية من حياته.

- لا. أنه لم يدخر شيئاً إذ أن راتبه لا يكفيه، وإن له زوجة تقاسمه العيش.

- أعتقد يا سيدي أنه من الخير الاستغناء عنه، إذ أنه لا يجيد عمله، وقد شوهد مرات عديدة وهو يشرب الشاي مع صحبه، تاركاً عمله، وراء ظهره. أليس من العبث أن نقدم له راتبه وهو لا يعمل شيئاً!

- لا أوافقك على ذلك أبداً - فليس من الحق ولا العدل أن نستغني عن خدمات هذا العجوز بعد أن مكث في خدمتنا خمسة عشر عاماً. إن الاستغناء عنه وهو في هذه السن جريمة لا تغتفر!

فألح ياجور على سيده بأن يجد لصديقه أي عمل كان، ولم يسع شاروف أخيراً إلا القبول وطلب منه أن يبعث إليه لمقابلته، فشكره على ذلك وأعلمه بأنه سيجده مثال الخادم النشيط.

وفي الغد عاد جيرسيم إلى صديقه كما وعده وتناولا الشاي معاً وبعد ذلك سارا إلى سيده شاروف، ولما وصلا سأل شاروف جيرسيم عن العمل الذي يجيده فأخبره بأنه يستطيع القيام بأي عمل يطلب منه، فطلب شاروف منه أن يأتي في الغد ليتسلم عمله الجديد.

فرح جيرسيم فرحاً شديداً. وأوصى ياجور صديقه بأن يقوم بعمله خير قيام حتى يكسب ثقة سيده فوعده خيراً. خرج جيرسيم ليهيئ بعض ما يحتاج إليه، ولما سار بضع خطوات وجد بيت (بولكرتش) وقد غطاه الثلج فلم يلق بالا إليه وواصل سيره، ولكنه سمع صوتاً من الداخل يقول: (وما العمل الآن يا بوالكرتش؟ وماذا سيكون مصيرنا؟ إننا فقراء لا نملك شروى نقير. لقد عملنا طويلاً وكان جزاءنا بعد هذه الأعوام الطويلة التي قضيناها غير شريف!) فأجابها زوجها بأن شاروف لا ينظر إلا لمصلحته الخاصة شأن غيره

obeikandi.com

من الناس؛ وهو لا يختلف عن غيره من القوم الذين ينظرون إلى الطبقات الفقيرة نظرة ألد لعبده؛ فما دام العبد قوياً يستطيعون حلبه كالنعاج فهو بخير وإذا ما ضعف أو تقدمت به السن قليلاً شعروا بثقله عليهم وجعلوا يتحينون له الفرص للتخلص منه! فقالت زوجة، وكانت الدموع تبلل وجنتيها، إن يا جور قد سبب لنا كل هذا الضر - ولكني سأقوم بدوري في إبعاد هذا الشاب من الخدمة واتهامه بسرقة الشعير والكلأ وبيعه فنتمكن بذلك من التخلص منه ومن صديقه الذي أراد بنا سوءاً!

سمع جيرسيم كل ذلك فحزن حزناً شديداً إذ سبب لهذه العائلة الوادعة هذا الضيق وأبدلهما من بعد أمنهما وسعادتهما خوفاً وشقاء؛ فمكث مدة وجيزة شارد الذهن ثم سار حتى وجد نفسه إلا في بيت صديقه يا جور، فقال له وهو مطرق الرأس: (أشكرك يا صديقي على ما بذلته لي من خدمات ولكنني لا أستطيع أن اعمل هنا. . . أجل لا أستطيع أن أعمل وسأبحث بنفسي عن عمل آخر في غير هذا المكان!) فغضب يا جور غضباً شديداً وطلب منه الخروج من غرفته حالاً.

فلما خرج جيرسيم من الغرفة شعر بفرح وسرور عظيمين.

الوفاء المذبوح..!

إيفان تورجنيف

مالي أراك يا وحيد ساهماً، وقد علت وجهك الغيوم... غيوم نفسك الحائرة في الحياة.. وقد سرحت الطرف، ترقب الشمس الغاربة، تتهادى على صفحة الأمواه، ناشرة غلالتها القرمزية على صفحة البحر الخضم، تودع الحياة... فتنحدر وجلة نحو المجهول، حتى احتضنتها الأمواج، فطوتها مع أشلائها المتناثرة ثم ولت نحو المغيب...

هل لفظتك الدنيا، وسئمتك الحياة، ففررت إلى تلك البقعة الجرداء، تنعى الأمل وتبكي الحياة، أم تخاطب النجوم المبعثرة في القبة الزرقاء؟!.

هل جلست هنا، أم منبسط المياه... تستمع لحشرة الريح؟ أم تعاتب القدر لقسوته عليك!؟

ألف سؤال أحتوشتني من كل جانب، وعندما قادتني قدماي إلى تلك البقعة الجرداء... فوجدته هناك شارداً عليه وجوم، وراحتاه تحملان رأسه الثقيل بالأتراح... يجوب بنظرته التائهة عبر البحر، يناشد الأمواج العزاء والسلوى، ويقاسم الريح عويلها الحزين!.

وألفيتني أدق في السكون الساري، والبحر من تحت قدمي، أمواجه تتلاعب، وتندفع إلى بعيد.. في الصفحة الفسيحة.

وفجأة لمحت أشباحاً انشق عنها البحر، ونفضت عنها ثوبها الأسود الكالح... فبدت طيوفاً بيضاء زاهية، حملتني إلى الماضي القريب، وقد خلته بعيداً، لما ناءت به مخيلتي من الخواطر والأفكار...

عرفتك يا وحيد أول مرة، طفلاً ساذجاً حلو الشمائل، وهب الله

أباك نعمة واسعة، وخيراً عميماً.. في القصور بين حدب الأب، وحنان الأم كنت، فكانت حياتك كالجدول العذب، يلعب بأنامله السحرية في الفلاة الصادية، فيحيلها مروجاً سندسية نضيرة. ويتسرب بين السهول والوديان، عازفاً ألحان المرح، وتراتيل السرور!.

وكذلك أنت يا وحيد.. كانت حياتك تسير في مواكب الأفراح ترقص وتغني! وكلما أغدقت من ثروتك الطائلة في سبيل الخير.. زادت، واتسعت، والتف حيالك الناس!؟.

ومضى بك الزمن هادئاً ناعماً إلى مطلع الشباب، فحلقت روحك بعيدا بعيدا أنت وحدك تدري إلى أين!! ثم هامت في اللانهاية.. تجوب عالم الخيال، تمني نفسك العطش نعيم الحياة، فما فتئت ترتوي من مختلف ينابيعها، وتعطف القبل من ثغرها البسام، إلى أن صبت نفسك إلى الراحة، وهفا قلبك للسكون، وتاقت روحك الهائمة... إلى بيت الزوجية الهانئ، فنفضت غبار الماضي، لتستقبل من اصطفتها توأماً لنفسك، وشريكة في الحياة.

وغمرتني النشوة، والطيوف تداعب خيالي، والرؤى تتماوج في شتيت الذكريات، وأحسست بالراحة رانت على روحي.. عندما تشابكت خيوط الماضي، كأنما لعبت بها أنامل بارعة، سرعان ما أحالتها إلى وجه صبوح عليه إشراقة عذبة ساحرة... فانطبعت في خاطري صورة عروسك الحبيب (سهام). ما كان أنظرها! عيناها كسندس تكتسي به الحقول، وشعرها المتهدل على جبينها الوضاح كبدر بين حفيف السحاب، أما صدرها الناهد وجسدها الريان، فمملوءان بسحر مجنون!!.

ما كان أروعها ليلة الزفاف، وهي تخطر إلى جوارك، بين هالة من الفتيات يحملن الشموع والزهور.. تفتر شفتاها من بسمة حلوة، يرف فيها ما تحس من سعادة وهناء.. وتلمح في عينيها تأملات حالمة، تحملها سراعاً إلى عشها الجميل، وأملها المنتظر، وبيعها الدائم، وقد نبتت فيه أزاهير من حب ووفاء.

وهنالك بين أكاليل الزهور.. جلست وعلى رأسها تاج من

obeikandi.com

زهور الأقحوان، محلى بالجيراينوم ومرصع بالفيولد. . . كانت في نبل الملائكة، تحوطها حالة من نور. . . نور يخطف الأبصار. . . قد تسربلت خيوطه البهية من بين أهدابها الحالمة!.

وكانت الليلة حلماً رائعاً، رقصت فيه الملائكة على أنغام الجازبند فتمايلت نشوانة فرحى. . . ترف حولها في المكان. . . آهات حري أرسلها صدرك يا صاحبي - علها تريد أن ترقص أيضاً!! - يحملها الأثير الهادئ اللين إلى ابتسامة الأمل، ونفحة الله. . . سهام.

وعلى دعاء الفجر لأله الوجود، حملتك وعروسك نسائم الصباح الندية، إلى عشكما الآمن، تشيعكما قلوب العذارى، وقد غبن في حلم جميل يتمنين أن تدب فيه الحياة!.

ها هو الليل قد أوشك على الرحيل، وها هو - أنا - أجلس إليك بعد ذلك الحلم الطويل. . . فهلا فككت كربتي يا وحيد، فتبسط على نفسك الحزينة الغارقة في الأتراح. . . وتقص علي ما وراء تلك العشرات البيض من أحداث! إنها تتسلل في شعرك الفاحم كنور الصبح يتلاشى أمامه الظلام!.

- أواه يا خليل. . . أن جراحات قلبي لم تندمل، وروحي الشريد. لم يستقر بعد!. . .

أنت تذكر ليلة العرس يا خليل، وقد حملتني وعروسي عربة انطلقت إلى النزل الفخيم، الذي اخترته للإقامة. . .؟

وصلنا هناك، والى غرفة تشعرك بالبهجة، تطل على مروج خضراء، ومياه جارية في سهل فسيح. . . حملنا أمتعتنا.

إني أذكر ساعة الوصول، ومدير الفندق يقودنا إلى الغرفة البهيجة، ثم يصفق خلفه الباب، وهو يتمنى لنا إقامة هانئة. . .

قلت لزوجتي وأنا أجوب الغرفة فرحاً: (ما أجملها غرفة يا سهام)؟ فقالت بصوت حنون: (إنها بديعة يا حبيبي)!.

وتطلعت إليها فتلاقت العيون، وتلمست أصابعي كتفيها المرمريتين بخفة ورشاقة، وقبلتها بحنان، ثم دفعتها برفق إلى الفراش، فاتكأت على حافته بحياء وخفر، وعلق بصري بعقارب الساعة تترى بسرعة. . . وسدتها ذراعي، وهصرتها بين أحضاني، ثم

onelkandi.com

تلاقت الشفتان في قبلة محمومة ولهى، فرشفت من الكأس حتى الثمالة...

وتراقصت الظلال في جلالة وروعة. . داعب النسيم البليل خصلات شعرها بمرح، فتهدل على صدرها العاري، وهو يعلو ويهبط بسرعة، وانعكست على صفحة وجهها خبايا هواها، وتألق في عينيها بريق عجيب، فيه لهفة عميقة!.

وفجأة... وفجأة يا خليل لمحت وجهها الوردي الفاتن يصير إلى اصفرار رويداً، وعيناها أخذتا تحدقان في شيء مجهول، تبكي في صمت وتتوسل في ذهول... كأن قوة جبارة أمسكتها بيد من حديد.

تحسست جسدها، وأنا من الهول لا اعي، فكان في برودة الثلج، فصرخت والدموع في عيني: (مالك يا سهام!... ماذا تحسين؟... إلي بطبيب! إلي بطبيب!).

وتداعى ذراعاي من حولها، فسقطت على الملاءات البيضاء، فقلت يائساً: (إليك روحي يا حياتي، خذيها وعودي إلي!. . . هل تذبل الورود وهي تختال في المروج؟ تكلمي... ردي عليّ ردي عليّ... لماذا لا أسمع صوتك الحنون؟ وأحرقلباه، يا ضيعة العمروأنا من غيرك يا سهام)!.

... وامتلأت الغرفة بالظلال الداكنة... تهتز في صمت ثقيل. . . وحفل الفراغ بالأشباح... تتراقص في عربدة مجنونة... فجثم على صدري صرخاتها المنكرة. . . فهرعت إلى الأسجاف أرفعها، وفتحت النافذة، فاندفع الهواء من السهل القريب، حيات تسعى. . . ومادت الأرض... حتى غدوت في النهاية، غريقاً في صخب هائل مفزع. . . وتوهج المصباح، ثم خبا فتشتت الضوء، وأحسست بالبرودة تسري في أطرافي، ثم غبت عن الوعي.

. . . وعادت الغرفة تلوح من بين أهدابي المغلقة، فلمحت خيالات كثيرة تروح وتجيء، وسمعت أحدهم يقول لخيال: (إنه في طريقه إلى الوعي)...

تحاملت على نفسي، وحدقت في الجدران التي تدور... وصرخت ملتاعاً (أين سهام؟ أين سهام؟)... فحشرج في سمعي صوت رهيب

(ذهبت... ذهبت يا وحيد ولن تعود)!

وانهمر على وجنتيه دمع حبيس، فقلت له وأنا من أجله ملتاع، أطالع صفحته الحزينة. . . فيثب إلى خاطري الوفاء المُعَذَّبُ، والدنيا والأحلام، وقد لُفّضت في أكفان الأبد، قلت له (وبعد يا رجل، هل تود أن تموت؟ هيا يا صديقي إلى الحياة، ترى فيها السلوى والعزاء).

- أنا؟؟ أنا أهبط إلى الحياة من جديد!؟ لقد سحقت قلبي أناشيد الحرمان، وذريت روحي في مهمة الظلمات، فهل أهبط إليها من غير قلب وروح!؟

- جرب هل الريح تأتي وفاء!

- دعني يا صاحبي في أحزاني وآلامي، علني ألحق بها، بعد أن خلفتني وحيداً في عالم الأحزان!

- لك الله يا وحيد، ولكن رفقاً بنفسك يا صديقي، ولم الوفاء لميت!؟.

- ويلك، ماذا تقول؟ وهل الحياة غير الوفاء لحبيب؟! مضيت في طريقي، وتركته وحيداً، وهو في غمرة الأسى، ولوعة الشجن، يذوب ويذوب، وهو يتطلع بشوق لهيف، هناك... إلى السماء... عل ملك الموت الرحيم! يختطفه إليها، فيجمعه بها في الفردوس... عند الله.

openkanz.com

obeikandl.com

قصة المفاتيح....

مكسيم جوركي

كان ثلاثتنا: (زيومكا كارجوزا) و (أنا) و (ميشكا) عمالقة بلحى طويلة وعيون واسعة لها زرقة الماء، نبتسم دائماً بثغور فرحة، ويخيل لمن يرانا أننا نترنح من الخمر أبدا. وكنا نأوي إلى بناء قديم خارج المدينة، يكاد من فرط قدمه أن ينقض، ولا يعرف غير الله لم سمي بمصنع الزجاج، ولعل ذلك لعدم وجود لوح زجاجي سليم به. وكنا نتقبل أي شيء دون أن يكون لنا شيء من الخيار، وكنا نكنس ساحات البيوت وننظف الغبار، وننبش المقابر وأكوام القمامة، ونهدم البيوت القديمة، ونقطع الأسوار. وقد حاولنا مرة أن نبني زريبة للعمالقة، إلا أننا فشلنا في ذلك. وكان زيومكا يسعى دائماً للقيام بواجبه، ويتشكك في معرفتنا ببناء زريبة للعمالقة. ولهذا فقد أحظر بنفسه ظهر يوم وكنا في غفوة كل المسامير وقطعتين من الخشب ومنشارا، وكان ذلك كله لصاحب عمل كنا نعمل عنده، وقد طردنا من أجل تلك الفعلة. ولما كنا لا نملك شيئاً يمكن سلبه منا لم يطالبنا بتعويض عن الأضرار التي لحقته بسببنا؛ وكنا في كفاف من العيش؛ وكنا غير راضين بما قسم لنا - وهو أمر طبيعي في مثل هذه الحالة، وتطور هذا الشعور بفعل الزمن فأصبح كراهية لكل ما يحيط بنا. وجرنا ذلك إلى أعمال تهديدية توقعنا تحت طائلة قانون العقوبات. والواقع إننا عشنا في ألم. غير مبالين بالحياة، مرغمين على البحث عن عمل وليس لنا من مظهر الحياة المادي سوى تجاوب ضعيف.

وكنا قد تقابلنا في ملجأ لمن لا مأوى لهم قبل أربعة عشر يوماً من الحادث الذي سأقصه عليك لأنه شائق في نظري؛ وصرنا بعد يومين أو ثلاثة من تعارفنا أصدقاء نسير معاً إلى كل مكان، ويفضي

كل منا لصاحبيه بأمله وأغراضه. ويشاطر بعضنا بعضاً كل شيء؛ وبالاختصار عقدنا اتفاقا لا نص له على أن نكافح سواسية مدافعين ومهاجمين الحياة التي ناصبتنا العداء

وفي النهار كنا نبحث بجد عن عمل، في قطع الأحجار، أو الهدم أو الحفر أو النقل، وعندما تتهيأ لنا فرصة مثل هذه كنا نعمل بجد ونشاط.

ولما كان لكل منا غرض أسمى من وضع مواسير المجاري أو تنظيفها - وهو من اشق الأعمال - فقد سئمنا العمل فيها بعد يومين. ثم أخذ زيومكا يتشكك في ضرورة الحياة.

ستصير هذه مجاري لأي شيء؟ للقاذورات؟ أليس في وسع الإنسان أن يلقي بها أمام داره؟ كلا هذا لا يصح فأنها تثير رائحة كريهة. هكذا! القاذورات تثير رائحة كريهة. أعمال عظيمة من أجل أشياء تافهة! فلو أن أنساناً قذف مثلاً بخيارة مخللة، غير كبيرة الحجم، فماذا تبعث هذه من رائحة؟ إنها تبقى يوماً. . . ثم تختفي. . . - تتعفن! لا، ولكن إذا قذف بجثة آدمي إلى موضع فيه الشمس فإنها تتعفن حقاً.. إلا أن ذلك عمل منكر!)

مثل هذه الأحاديث كانت تفت في عضدنا وتقلل رغبتنا في العمل. وكان ذلك يفيدنا كل الفائدة عندما نعمل بأجرٍ يومي في الأعمال الجزئية. فقد كنا نتقاضى أجرنا دائماً قبل أن نتمم ما عهد إلينا به من عمل. وذهبنا مرة إلى مقاول وطلبنا منه أن نعمل في عمل، إلا أنه طردنا وهددنا أن سوف يضطرنا بمعونة الشرطة إلى إتمام العمل الذي أنقدنا أجرنا عليه من قبل. وكنا نجيبه بأنه لا طاقة لنا على العمل وبطوننا خاوية. وتشبثنا مطالبين بالعمل. وكنا نحصل عليه في أغلب الأحيان.

كان ذلك خطأ منا، ولكن لا نكران في أنه كان مفيدا لنا. ولم يكن في وسعنا أن نصلح شيئاً من نظام الحياة الذي فسد، حتى أصبح القيام بعمل والانتفاع به ضدين.

وكان زيومكا في كل مرة يتولى المفاوضة مع أصحاب العمل، وكان يقوم بها بمهارة ولباقة، وكان يبرهن على صحة مطالبه بهدوء

الرجل المهدود القوي الذي يرزح تحت عبء الأعمال التي لا طاقة له بها.

وكان ميشكا يقف صامتا إلى جانبه، ويحمله بعينيه ويبتسم ابتسامة الرضا والسرور، كما لو أنه كان في نيته أن يقول شيئاً ولكن خارعزمه. وكان يندر أن يتحدث، فإذا ما ثمل أخذ في الكلام كمن يلقي خطاباً. ثم ناداه مبتسماً:

(أخي!) وكانت شفتاه ترتجفان عجبا، وبقي صوته محتبسا في حلقه، وبدا يسعل ليسترخجله، ثم أمسك رقبته بيده

وقال زيومكا، ولم يطق صبراً: (ما بالك؟)

فقال له: (أخي! إننا نعيش كالكلاب، بل أتعس منها. ولم ذلك؟ لا أحد يدري! ولكن لا بد من أن الله عزوجل أراد ذلك، فكل شيء يسير بإرادته. أليس كذلك يا أخي؟ نعم هو كذلك. ولذا أقول إن ما نلقاه نحن التعساء هو العدل. أليس ذلك تفكيراً صحيحاً؟ وعلى ذلك أفلا يمكن أن تتحسن حالنا؟ يجب أن نرتضي حظنا صابرين. . . أليس كذلك؟)

ولكن زيومكا أجاب على أسئلة زميله المتعددة المثيرة للخواطر بكلمة مختصرة: (يا قليل العقل!)

فانكمش ميشكا وقد عرف خطأه، وابتسم خجلا وبرقت عيناه المنتفختان من الخمروسكت. ثم قال فجأة: آه، لو أن لنا (خنزيراً).

وكنا ذات يوم نتسكع في السوق نبتغي عملاً، فاصدمنا بامرأة عجوز ضامرة قصيرة ذات وجه كثير التجاعيد؛ وكان رأسها يهتز فوق عنقها. وعلى أنفها منظاركبير محاط بإطارغليظ من الفضة، يتأرجح يمنة ويسرة فتعمل يد العجوز لتثبيته في موضعه. أخذت تحدق فينا النظر؛ وقد وجهنا إليها أنظارنا طامعين في حديثها.

وسألتنا: أليس لكم عمل؟ أتبحثون عن عمل؟

ولما أجابها زيومكا في احترام بالإيجاب، قالت: (حسناً! عندي حمام قديم أريد هدمه. كما أريد أن تنظف النافورة. . . فكم من الأجر تطلبون؟)

فرد عليها زيومكا في احترام أيضاً قائلاً: (يجب أولاً يا سيدتي

المحترمة أن يرى الإنسان حجم الحمام، وكذلك النافورة، فلكل نافورة شكلها الخاص، إذ منها ما هو عميق جداً و...)

وطلبت منا العجوز أن نرى النافورة. ولم تمض ساعة حتى كنا نعمل مجدين بالمناشير والمعاول في هدم الحمام. فلما انتهينا من عملية الهدم هذه وتنظيف النافورة تقاضينا مبلغاً قدره خمسة روبلات وهو الأجر الذي اتفقنا عليه. وكان الحمام مقاماً في ركن مهجور من الحديقة، وعلى مقربة منه كوخ خشبي تظلله أغصان شجر الكرز. وقد رأينا ونحن نهدم بناء الحمام العجوز جالسة في ذلك الكوخ عاكفة على قراءة كتاب كبير وضعته على ركبتيها.. . وكانت من وقت لآخر ترمينا بنظراتها الحادة. وكان الكتاب يهتز فوق ركبتيها فيلمع القفل الفضي للكتاب.

ليس بين الأعمال أسهل من التخريب والهدم. وقد استفرغنا جهدنا وسط سحابة من الغبار. وكنا نعطس ونسعل ونمخط ونفرك أعيننا حين قد سقط الحمام وتناثرت أجزاؤه. فقد كان عتيقاً ناخراً كصاحبته.

(هيه يا شباب، فنجيبها: واحد، اثنان، ثلاثة، هوب!) هكذا كان زيومكا يصدر أوامره. وهكذا تساقطت كتل البناء الواحدة تلو الأخرى.

وتساءل ميشكا وهو مطرق الرأس مستنداً إلى الفأس مجففاً عرق جبينه: ما عساه يكون هذا الكتاب؟ أنه لكتاب ضخم! ولن يكون الإنجيل إذ هذا أضخم منه)

وسأله زيومكا مستفسراً: (وماذا يهمك من ذلك؟)

(يهمني؟ كلا! إنني أميل لاستماع من يقرأ الكتب. . . أعني الكتب الدينية. وكان في قريتنا جندي أسمه أفريكان يقرأ كثيراً في الإصحاح، وكذلك وكان وقع ذلك في أذني كالموسيقى - ما أجمل ذلك!)

وسأله زيومكا وهو يشعل لفافة التبغ: والآن؟)

- لاشيء. لقد كان جميلاً، على رغم أن الإنسان لا يفقهه. إنه لكلام جميل... وقد لا يسمع الإنسان كلاماً مثله في الشارع. نعم إن

الإنسان لا يعرف له معنى، ولكنه يشعره بأن ذلك له صلة بالروح.

وهزئ زيومكا منه قائلاً: هذا ما لا أفهمه. إن الإنسان ليرى فيك من جديد غباء الحذاء القديم.

فأجاب الأخر قائلاً: (إنني واثق من أنك تميل إلى السباب)

(كيف السبيل إلى مخاطبة مثل هذا الحمار؟ إنه لا يفقه شيئاً غير ذلك: هيا، أعمل معولك هنا - أنتبه... هوب)

وتقوض بناء الحمام شيئاً فشيئاً وكثرت الأنقاض، وقد أحيطت بغمامة من الغبار كست أوراق الأشجار القريبة

وبدأ ميشكا ثانية: هذا الكتاب محلى بالفضة)

ورفع زيومكا رأسه، وصوب نظره إلى الكوخ. وقال في اقتضاب:

- (هو كذلك على الغالب)

- (إنه لا شك الإنجيل)

- (ليكن ذلك. وماذا يهمك من أمره؟)

- (لا شيء!)

- (لا شيء هذه ملء جيوبي. ولكن إذا كنت تريد أن تستمع إلى ما في الإنجيل فاذهب إلى العجوز وقل لها: أقرئي لي يا سيدتي المحترمة شيئاً من الإنجيل، إنه لا سبيل لنا غير ذلك؛ إننا لا نذهب إلى الكنيسة لأن أبداننا قذرة وملابسنا بالية، إلا أن لنا روحاً كبقية الناس... هيا أذهب).

- (هل أذهب حقاً؟)

- (نعم، أذهب)

وقذف ميشكا بمعوله وأصلح ثيابه ومسح الأقذار عن وجهه بكمه، وقال زيومكا في نفسه وابتسامة السخرية على فمه: (ستركلك برجلها كأحقر دب) غير أنه تلهف على متابعة خطوات صاحبه بالنظر، وسار هذا بخطى ثقيلة وابتسامة الخجل والهدوء مطبوعة على وجهه، ورفعت العجوز رأسها وصوبت نظرها إلى ذلك المتسكع القادم إليها، وكانت الشمس تضيء زجاج منظارها وإطاره الفضي فيومض

ولم تركله برجلها برغم أن زيومكا تنبأ بذلك، وكان حفيف

الشجر يحول دون سماع ما تحدث به ميشكا إلى صاحبة المنزل، ولكنا رأيناه يخر فجأة أمام قدميها ويجلس على الأرض حتى يكاد أنفه يمس الكتاب، وكان وجهه يدل على الهدوء والرزانة، وقد رأيناه وهو يحاول ما استطاع أن ينفخ في لحيته ليبعد عنه الغبار، وأخيراً أستقر في مجلسه ومد عنقه ووجه نظره إلى يد العجوز التي أخذت تقلب صفحات الكتاب صفحة صفحة.

(أنظر إليه فهو كالكلب غير المهذب! له الآن أن يستريح. فهل نذهب نحن كذلك؟ وماذا نعمل هنا وحدنا، وهو يجلس هادئاً بينما نحن نعمل من أجله ونهك قوانا. هيا، سر إلى الأمام).

وبعد دقيقتين جلسنا إلى جواره واحدا عن يمينه والآخر عن يساره، ولم تنبس العجوز بكلمة ساعة قدومنا، ولكنها كانت تحدق فينا وتقلب صفحات الكتاب كمن يبحث عن شيء بعينه، وكانت السماء صافية تشيع السرور في النفس، وكان النسيم العليل يهب من وقت لآخر مداعباً أوراق الشجر، وانساب من هذا وذاك سحر إلى قلوبنا التي كانت تتهيأ للمحبة والسلام، وبدأ يستيقض فينا الإحساس بأشياء غامضة مجهولة إلا أنها قريبة منا، وأخذت أرواحنا تتحرر من الأدناس

(بولص، خادم المسيح)

بهذا رن صوت العجوز، وكانت ترتعش وقد هدها الكبر، غير أنها كانت خاشعة، ورسم مشيكا الصليب، وأخذ زيومكا يتحرك من جنب إلى جنب ليجد مكاناً في الأرض مريحاً، وكانت العجوز ترمقه بعينيها دون أن تمسك عن القراءة.

وكان زيومكا أثناء ذلك، وهو الملحد الحقيقي، يتثاءب عالياً، فنظر إليه صديقه نظرة احتقار ثم اطرق برأسه؛ وحدقت العجوز بنظرها في زيومكا دون أن تمسك عن القراءة، فخجل من ذلك ومسح أنفه وأدار عينيه ليرى نتيجة تثاؤبه فلم تكن إلا تأوهاً خاشعاً.

ومضت دقائق هادئة إذ كان لصوت القارئة المرتل أثر في

الطمأنينة:

(إن غضب الرب ينزل من السماء على كل غير رباني. . و. .) وصرخت القارئة فجأة في وجه زيومكا: (أتريد. . .؟)

فأجاب في استكانة: (أنا. . . أنا. . . لاشيء! تابعي القراءة؛ إنني أستمع)

فسألته العجوز غضبى: (لماذا تلمس القفل بيديك القذرتين؟)

- (إنه ليهمني. . . إن صنعه جميل جداً. . . إنني أفهمه، كنت قبلاً صانع مفاتيح، وأردت أن أجسه. . .)

وقالت العجوز: (انتبهوا، ماذا قرأت لكم؟)

وقال زيومكا: (إنني أستطيع أن أعيده. . . إنني أفهم)

وقالت العجوز: والآن؟

- (لقد كنت ترتلين تعاليم الدين، وتذكرين عدم الإيمان بالرب. المسألة في غاية البساطة، فكل شيء من ذلك حقيقي. لقد كان ذلك يحز في قلبي.)

ونظرت العجوز إلينا وهزت رأسها وقالت:

(إنكم مفقودون. . . كالحجارة. . . ارجعوا ثانية إلى عملكم)

وقال ميشكا وعلى فمه ابتسامة المعترف بذنبه: (يظهر إنها غضبى)

وحك زيومكا رأسه وتثاءب والتفت إلى العجوز دون أن يراها وسار في طريقه وأطرق مفكراً: (إن قفل الكتاب من الفضة) وسرت في وجهه قشعريرة وقضينا الليل في الحديقة إلى جانب أنقاض الحمام الذي هدمناه عن آخره في ذلك اليوم. وفي ظهر اليوم التالي أتممنا تنظيف النافورة، وقد ازدادت قذارتنا وتبللنا بالماء، وانتظرنا أمام باب المنزل في انتظار أجرنا، وكنا نتحدث عن غذاء وعشاء دسمين نتناولهما قريباً؛ ولم يكن لواحد منا أي رغبة في الحديث عن شيء غير ذلك.

وفرغ صبر زيومكا وقال بصوت أجش: والآن أين استقرت يا ترى هذه الغول الشمطاء؟ لقد هلكت!

وقال ميشكا وقد هز رأسه معاتباً صديقه:

(لقد بدأ يسب من جديد. ولماذا يسب يا ترى؟ هذه العجوز امرأة طيبة تخاف الله، وهو يسبها - هذا هو خلق الرجال!)

وابتسم زيومكا وقال له إنه شديد الحساسية نحو ذلك الطائر الشارد، تلك العجوز... هذه...

وقضى ظهور العجوز على هذا الحديث الطريف. وتقدمت إلينا وأخرجت النقود وقالت في احتقار: (هاهي ذي نقودكم فخذوها وارحلوا من هنا. كنت أريد أن أعطيكم أخشاب الحمام فتقطعوها قطعا صغيرة، ولكنكم لستم أهلا لذلك)

وأخذنا نقودنا صامتين وذهبنا ولم نحظ بشرف تقطيع أخشاب الحمام إلى قطع صغيرة للوقود

وقال زيومكا وقد خرجنا من باب الحديقة: أيها البشع العتيق أنظر إلى هذه! ألا أستحقها يا قبيح الوجه؟ الآن يمكنك أن تسبح باسم ذلك الكتاب.

وأدخل يمينه في جيبه وأخرجها بقطعتين من المعدن اللامع وأرانا إياهما كمن كتب له النصر

وجمد ميشكا في موقفه، واشرأب عنقه ليرى ما في يدي زيومكا. وسأله حائراً: (هل خلعت القفل؟)

- (هذا ما فعلته! إنه من الفضة الجيدة. ويمكن لأي إنسان أن يحتاج إليها. وهى تساوى على الأقل روبلا)

- (هيه، وما دمت قد فعلت ذلك فارمها بعيداً عني! يا للخجل!)

- (سأفعل ذلك)

وتابعنا السير في صمت. وقال ميشكا مفكراً في الأمر. تمت بمهارة، انتزعها ببساطة. ثم قال: (نعم لقد كان كتابا جميلا وستحقد العجوز علينا)

وقال زيومكا هازئاً: (إنها لن تسترجعنا مرة أخرى لتقدم لنا ثناءها)

- (وبكم تبيعها؟)

- (بتسعة أعشار الروبل - هذا أقل ثمن، لا أقل من ذلك فلسا. إنني أخسر فيها. أنظر لقد انقصف لي ظفر)

وقال ميشكا في خجل: (بعني إياها)

- (أإياك أبيعها؟ أتريد أن تجعل منها أزراراً لقميصك؟ أنظر! إنها تكفي لعمل زوج جميل من الأزرار- وهى تليق بك على ثيابك الخلقة)

ثم أخذ ميشكا يستعطفه: (كلا إنني جاد غير هازل. بعني إياها

- (اشترها، كم تدفع؟)

- (خذ ما تشاء، ما هو القدر الذي أحصل عليه من شركتي في العمل؟)

- (روبل واحد وعشرون كوبكا)

- (وكم تريد أن تأخذ فيها؟)

- (يا مغفل! ماذا تريد أن تفعل بها؟)

- (بعن إياها. أرجو ذلك)

وانتهت عملية البيع في النهاية، وأصبح القفل ملكا لميشكا بعد أن دفع تسعين كوبكا

ووقف ميشكا في مكانه وقلب القطعتين في يده وحدق فيهما. ونصحه زيومكا هازئاً بأن قال: (علقهما في انفك؟)

وأجاب ميشكا جادا: (ولم ذلك؟ إنني لا أريدهما. سأرجعهما إلى العجوز وأقول لها: هاك يا سيدتي العزيزة المحترمة. لقد أخذناهما سهوا معنا، فأرجعهما إلى ما كانا عليه

- ولكنك انتزعتهما فكيف إصلاحهما؟)

وسأله زيومكا وقد فتح فاه: (أتريد حقاً أن تحملهما إليها يا شيطان؟)

- (نعم ولم لا؟ أنظر إن مثل هذا الكتاب يجب أن يبقى كما هو. ولا يجوز للإنسان أن ينزع منه قطعة. وسوف تغضب العجوز وتحزن... وسوف تموت عما قريب. هذا ما أردت. فانتظر لحظة يا أخي فسأعود سريعاً)

وقبل أن نتمكن من إيقافه اختفي وانعطف بخطوات سريعة وقال زيومكا في غضب وهو يفكر في أثر هذه الواقعة ونتائجها المحتملة: (ما أضعف هذا الرجل وما أكثر تغفيله؟)

ثم أخذ يؤكد لي في كل جملة خطأه

ولكن الآن انتهى كل شئ. لقد أوقعنا في الشرك. ولعله الآن جالس متكئ أمام العجوز. وقد لا يغيب عنها أن تستنجد بالشرطة)

(هذا مثل مما يتوقعه الإنسان من مصاحبة هذا الوغد. إنه حقا يدخل الشخص إلى السجن من أجل شئ تافه. هذا الكلب! هل رأيت رجلاً له مثل هذه النفس الدنيئة. ينبغي أن يُلقي بأصدقائه إلى التهلكة. يا إلهي! أهذا هو جيل اليوم؟ هيا بنا. لم هذا الانتظار؟ أتريد أن تبقى هنا؟ انتظر إن شئت. ليخطفك عفريت من الجن أنت وكل الأوغاد من أمثالك. ذلك الوغد! ألا تريد أن تذهب معى؟ هيا)

ووكزني زيومكا في جانبي وسبني ومضى لسبيله

وكنت أريد أن أعرف ماذا جرى لميشكا عند صاحبة آخر عمل قمنا به. فذهب ثانية إلى ذلك المنزل. وكنت أعتقد أن لا خطر في ذلك. وأن السوء لا يمسني من جراء هذا. ولم يخب ظني. ووصلت المنزل وأخذت أنظر من خلال الحواجز وقد رأيت وسمعت ما يلي:

كانت العجوز جالسة على سلم المنزل ممسكة بقطعتي القفل الفضي بيدها وهى تنظر إلى ميشكا من خلال منظارها بدقة كما لو كانت تريد أن تتغلغل في صميمه. وكان لعينيها الحادتين بريق قوى. وقد ارتسمت على طرف فمها ابتسامة خفيفة رخوة تحاول إخفاءها: هي ابتسامة المغفرة.

وتبين من خلف العجوز ثلاثة رؤوس: امرأتان إحداهما شديدة حمرة الوجه وعلى رأسها منديل زاهي الألوان. والثانية عوراء. وقد وقفت خلف رجل عريض المنكبين وإمارات وجهه تدل على أنه يريد أن يقول:

(أسرع من هنا يا صديقي! أسرع بقدر ما يمكن)

وكان ميشكا يتحدث في ارتباك:

(لقد كان كتاباً عظيما!! إنهما نذلان! أما أنا فقد كنت أذكر ربى. هذا هو الحق. وهذا ما يجب قوله. إننا تعساء ورجال سوء أنذال - ثم كنت أعود فأفكر في المرأة العجوز الطاعنة في السن. ولربما

كان سرورها الوحيد في كتابها هذا - ذلك ما ظننته. وأردت أن أهيء للعجوز المتدينة سروراً وأن أرد إليها أشياءها: وقد اكتسبنا بحمد الله شيئاً نقتات به. فالوداع يا أخوتي. إنني أريد الذهاب الآن)

واستوقفته العجوز وقالت له: (انتظر! هل عرفت ما قرأته لك البارحة؟)

(أنا؟ أَنَّى لي ذلك؟ إنني استمعت إليك ولكن أي استماع؟ فهل لآذاننا قدرة على استماع كلام الرب؟ إننا لا نفهم مثل ذلك.)

وقالت العجوز: (أهكذا؟ ألا تنتظر لحظة أخرى؟) وتململ ميشكا وأخذ كالدب يضرب الأرض برجليه. فان مثل هذا الحديث لا طاقة له به.

- (هل لي أن أقرأ لك شيئاً قليلاً؟)

- (..... ولكن صديقَّي ينتظران.)

- (دعهما ينتظران، إنك رجل طيب. دعهما يسيران حيث شاءا.)

وقال ميشكا بصوت خافت: (حسناً.)

- (إنك لن تسير معهما بعد الآن؟ أليس كذلك؟)

- (لا.)

- (هذا هو الصواب. إنك طفل كبير على رغم مالك من لحية تنزل إلى وسطك! هل أنت متزوج)

- (بل أعزب. إن زوجتي توفيت.)

- (ولم تشرب الخمر؟ أنك تشرب طبعاً؟)

- (نعم.)

- (ولماذا؟)

قال ميشكا متضجراً: (ولماذا أشرب الخمر؟ لتغفيلي. إنني مغفل ولهذا أشرب. ولو كان للإنسان عقل لم جرؤ على تحطيم نفسه بيده.)

- (إنك على حق.) فاعمل على أن تكون عاقلاً. حسن من سيرتك وأصلح من أمورك.

اذهب إلى الكنيسة واستمع إلى كلام الرب ففيه كل الحكمة.)

وتأوه ميشكا وقال: (سأفعل)

- (هل لي أن أقرأ لك شيئاً؟)

- (نعم، تفضلي)

وأتت العجوز بالإنجيل، وقلبت صفحاته، وبدأ صوتها يدوي، ورمى ميشكا برأسه إلى الوراء، وحك بيده ذراعه اليسرى (وهل تظن أيها الإنسان أن في وسعك التهرب من حكم الرب؟)

وقاطعها ميشكا وكأنه يجهش بالبكاء: (سيدتي المحترمة، دعيني أذهب، أرجو ذلك محبة في الله، سآتي مرة أخرى عن طيب خاطر واستمع. أما الآن فأني جائع جدا. إننا لم نتبلغ منذ أمس.

ودقت العجوز صدرها، وقالت: (أذهب! ابتعد!) ورن صوتها المزعج في الفضاء، واندفع ميشكا مسرعا نحو الباب بعد أن قال لها:

(أشكرك شكرا جزيلاً أيضا)

وتمتمت العجوز تقول: أرواح مغلقة! قلوب غلف كالحجارة!

وبعد نصف ساعة جلسنا في المطعم، وشربنا الشاي وأكلنا الخبز الأبيض، وقال ميشكا وهو يبتسم إليّ بعينه التي تشبه عيون الأطفال سذاجة وفرحا: (كنت أشعر كأن حمى قد انسابت في جسمي، وقد وقفت هنالك وفكرت في القول: أي ربى لم جئت إلى هنا؟ إنه العذاب! وبدأت هي الحديث: هل هؤلاء آدميون! إننا نريد أن نكون شرفاء معهم ونهيئ لهم ما توحي به ضمائرنا، إلا أنهم يفكرون في غير ذلك: يفكرون في متاعهم. فقلت لها: يا سيدتي المحترمة، هذا هو قفلك أرده إليك ولا تغضبي. . . ولكنها قالت: انتظر، ابق هنا، أذكر لي أولاً لم أحضرته؟ وبدأت تخزني بكلماتها، ولقد سئمت كثرة أسئلتها. . . هذه هي الحقيقة)

وتابع الابتسام الهادئ المريح

واهتاج زيومكا وقال له جادا:

(أولى لك يا صديقي أن تموت! وإلا التهمك في الغد الذباب من فرط سخف أفكارك)

- (إنك تتحدث بغباء دائماً. تعال، نريد أن نشرب كأساً على المسألة الستار). وشربنا كأساً على نهاية هذه الحادثة العجيبة.

من الماضي..!

أنطون تشيخوف

كان الجو في بداية أمره منعشاً هادئاً. . تنبعث خلال سكونه الحالم أغاريد طير (الأج) العذبة. . . والمستنقعات قد حفلت بأجسام ضئيلة حية ترسل أنات متحشرجة محزنة أشبه بفحيح الأفاعي. . . وانطلق طائر (البكاسين) فرددت الريح صدى دوي الرصاصة التي صوبت نحوه. . . بيد أنه حينما بدأت الظلمة الحالكة تنشر على الكون غلالتها السوداء.

هبت من ناحية الشرق ريح نفاذة. . . وغاص كل شيء في بحر من الصمت الرهيب. . . وعلت البركة طبقة متماسكة من الثلج. . . وإذا بالغابة كلها خالية مقفرة مخيفة. . .

لقد بدأت علامات الشتاء تظهر على محيا الزمن. .!!

وكان (إيفان فيلكوبولكني) عائداً إلى بيته بعد قضاء يوم مليء بالمغامرات والقنص - وهو ابن أمين مكتبة الكنيسة وطالب بالمجمع الكنائسي - وكانت أنامله قد أصابها شيء من التخدير ووجهه قد اتقد بهبات الريح. . وخيل إليه أن ذلك البرد الذي هبط فجأة. . قد أفسد على الأشياء رونقها. . وران على معالمها. . وأن الطبيعة ذاتها خامرها القلق. . وساورها الاضطراب. . وهذا علة ما شاهد من أن الحلكة قد بدأت تخيم على الأرض أسرع مما كانت عليه من قبل. . وكان كل ما يحيط به مهجوراً كئيباً. . ولم يكن ثمة بارق من الضوء يومض إلا في حدائق الأرامل - وكانت القرية. . وهي على بعد ثلاثة أميال - وكل ما يأخذ العين سابحاً في ضباب المساء البللوري. .

وتذكر الطالب أنه حين غادر بيته كانت أمه تفترش الأديم. عارية القدمين. تنظف وعاء الشاي. . وأبوه جالساً على مقربة من الموقد

يعاني آلام السعال.. ولما كان اليوم هو الجمعة الحزينة لم يطبخوا شيئاً. فاستشعر لذعات الجوع الهائل.. ثم تقلصت أعضاؤه.. ودار بخلده أن مثل هذه الموجات من البرد كانت قد اجتاحت أيام رادك وبطرس وإيفان الجبار.. وأن في زمانهم الفقر المدقع قد تفشى.. والجوع المهلك قد انتشر.. وكذلك نفس السقوف التي صنعت من القش التي اتخذت منها الخروق والثقوب العديدة موطناً لها.. كما اتخذ الجهل والبؤس ونفس الحيرة والظلمة والضجر من الأهليين حقلاً خصيباً تنمو فيه يوماً بعد يوم.. لقد كان ذلك في عهدهم.. وحدث بلا مراء ولا جدال.. ثم تدور على أسطوانة الدهر ألف عام.. والحياة هي. هي لا يعتريها تقدم.. ولا تحسن...!!

وكان متقيناً إلى نفس الشاب أن يؤوب إلى بيته..

ويرجع السبب إلى إطلاقهم على الحدائق اسم حدائق الأرامل أن أرملتين - أما وابنتها - كانتا قد آلتا على نفسيهما أن يتعهداها بالرعاية.. ويسهرا على شؤونها..

وكانت هناك نار مضيئة ملتهبة.. وأصوات طقطقة صاخبة.. يحملها الأثير إلى مسافات كبيرة فوق الأرض المحروثة.. وكانت الأرمل فازيليا - وهي بدينة الجسم فارعة القامة - ترتدي سترة رجل واقفة إلى جانب النيران تحدق بعينين شاردتين.. تنطويان على التفكير العميق والرحلة إلى عالم غامض مبهم.. وكانت ابنتها ليكريا جالسة على الأرض تنظف الملاعق والصحاف، وهي امرأة ذات نظرة متبلدة فاترة قد انتشرت على وجهها آثار الجدري.. وكان واضحاً لدي أنهما قد فرغتا من تناول عشاؤهما.. منذ برهة. وكان صوت العمال يصل إلى آذاننا.. وهم يسقون جيادهم من النهر..

واتجه الطالب صوب النار.. وقال:

- لقد عاود الشتاء كرته. مساء الخير...!!

فارتاعت فاريليا.. غير أنها تبينته لتوها.. فارتسمت على شفتيها ظلال ابتسامة رقيقة وقالت:

- إنني لم أعرفك..! لتحرسك عناية الخالق الأكبر سوف تصيب ثراء واسعاً..!

ثم أخذوا يتجاذبون أطراف الحديث..

كانت فاريليا.. ذات خبرة كبيرة. قد اختلطت بالطبقات العالية. إذ كانت تعمل وصيفة. ثم مربية للأطفال. . فراحت تطرق باب الحديث بعصا اللباقة والرقة. . ولم تفارق شفتيها. . ابتسامة ناعمة دسمة. . أما ابنتها ليكريا فكانت ريفية قد ألهبها زوجها بسياط معاملته القاسية.. فسمرت نظراتها على وجه الطالب.. ولم تشرك نفسها بالحديث، وكانت تلوح على وجهها سمة كالتي تراها ضافية دائماً على الصم والبكم..

وحرك الطالب يديه حول النار ينشد الدفء وهو يقول:

- لقد كان القديس بطرس يدفئ نفسه على مثل تلك النار.. فلا ريب إذن. أن الجو كانت تسوده البرودة آنذاك. . آه. . . لابد أنها كانت ليلة مروعة يا جدتي. .! ليلة طويلة مشؤومة لا محالة.!. . ثم ألقى ببصره إلى ما عقد حوله من نطاق الظلمة الدامسة وهز رأسه في تأثر بالغ وقال:

- لا شك أنك كنت تطالعين في الإنجيل ثنى عشر..؟

فأجابت فازيليا: - أجل. .! لقد كنت أجيل الطرف خلال صفحاته..

هل يعلق بذاكرتك أن بطرس قال في العشاء الأخير (إنني متأهب تمام الأهبة لأن أخوض برفقتك معمعة الظلمة والموت) فأجاب مولانا السيد (إنني أقول لك يا بطرس إنك ستشرك بي ثلاثا قبل أن تصيح الديكة وخرج يسوع) عقب العشاء إلى الحديقة.. ويوقد له نيران الموت وكان بطرس المسكين.. خامد النفس.. واهي القلب. . وعيناه مثقلتان. . فلم تصمدا أمام جيوش النعاس فهزمهما النوم. . ولقد أدركني أن يهوذا تقابل ويسوع في تلك نفسها. وأفشى أمره إلى مضطهديه. . وأنهم. . أدوا به إلى الكاهن الأكبر مغلولاً. . فضرب كثيراً. .!!

واستيقظ بطرس متثاقلاً وهو يتوقع أن الشيء الخطير المفزع سيحل بالأرض. . ولقد كان يحمل ليسوع الحب والتقدير الشديدين.. وهاهو ذا الآن يضرب على البعد.

. . وألقت ليكريا بالملاعق من يدها وأدارت بصرها إلى الطالب الذي استطرد في القول. .

- فلما انتهوا حيث دار الكاهن الأكبر راحوا يمطرون يسوع بوابل من الأسئلة المتزاحمة بيننا أشعل الرجال النار في الفناء يصطلون. . واندس بطرس بينهم يدفئ نفسه كشأني الآن هنا. . فرأته إحدى النساء. . فصاحت (لقد كان هذا مع يسوع. . أيسوع أيضاً؟) ومعنى ذلك أنه ينبغي أن يستجوب أيضاً. . ولابد أن جميع العمال قد نظروا إليه في ارتياب وحذر. . إذ أن الارتباك استولى عليه فقال (كلا. . إنني لست أعرفه) وما انصرمت فترة قصيرة الأمد حتى عرف شخص آخر أن هذا الرجل من تلاميذ يسوع فقال (إنك كذلك أحدهم) ولكن بطرس آثر الإنكار للمرة الثانية. . غير أن شخصاً ثالثاً تحول إليه وقال (كيف هذا. ألم أشاهدكما معاً في الحديقة اليوم؟) فأصر بطرس على ألا يعترف للمرة الثالثة. . وفي تلك الآونة انبعثت صيحة الديك. . ونظر بطرس إلى يسوع على البعد. . واجتر في ذاكرته تلك الكلمات التي تفوه بها في المساء إذ قال له (إنك ستشرك بي ثلاثاً قبل أن تصيح الديكة) وعندما استعاد في ذاكرته هذا. . عرته رجفة من الألم الممض. . وزايل الحديقة. . وأرخى العنان لمقلتيه. . تذرف الدمع الحار. . والإنجيل يقول (لقد انصرف والدمع السخين يهطل من عينيه مدرارا). .

إنني لألمس ذلك الآن واضحاً جلياً. . فها هي ذي الحديقة يطويها الظلام. . ويخيم على أرجائها السكون. . .

وفي ذلك الهدوء الشامل اختنق صوته بالعبرات. . حتى وقف الكلام في حلقه. .

وتنهد الطالب تنهداً عميقاً. . وسرح ببصره في متاهات التفكير. . وكانت فازيليا لا زالت على شفتيها الابتسامة المشرقة. . بيد أنها غصت بريقها بغتة. . وانحدرت الدموع على وجنتيها المتوردتين وكأنما أخجلها أن تبكي فوارت وجهها بطرف ثوبها. . أما ليكريا فكانت عيناها تحملقان في الطالب في نهم وشراهة. . فتصاعد الدم إلى وجهها. . وبدت على سحنتها علامات التبرم. . كأنما تقاسي

ضيقاً مؤلماً...

وانقلب العمال راجعين من النهر.. بعد أن أطفئوا ظمأ خيلهم. . ومر واحد منهم على الدار ممتطياً صهوة جواده. . بينما الأضواء تترنح على جسمه. . فحيا الطالب الأرملتين. . وودعهما. . وطواه الليل برداء الظلام مرة أخرى. . وسرى التخدر في أنامله. . وكانت الريح تعصف وتهب. . حتى كأن الشتاء قد عاد حقيقة. . ولم يكن هناك من الدلائل ما يوحي بأن شمس العيد ستشرق في الصباح الباكر!

وفي تلك اللحظة كانت خواطر الطالب منصرفة إلى فازيليا (لا ريب أن نشيجها هذا له صلة بما وقع لبطرس في الليلة التي طويت قبيل صلب المسيح. وأرسل إشعاعات من بصره على ما حوله وكان الضوء لا يزال يلمع في بهمة الليل. . بيد أنه كان وحيداً. . ولم يكن بجانبه آدمي ما. . وأجهد الطالب فكره ثانية. . في أنه ما دامت فازيليا قد بكت. . وما دامت ابنتها قد اضطربت فلا ريب أن ذلك حدث منذ تسعة عشر قرناً. . والذي أفضى بحديثه الآن. . لاشك أن هناك خيوطاً قوية. . تربط ذلك الشيء بالحاضر. . بهاتين المرأتي،.. بالقرية الرابضة في الخلاء.. بنفسه. بالعالم كله!

لقد أجهشت تلك المرأة العجوز بالبكاء. . لا لأنه عرف كيف يروي عليها القصة. . بأسلوب له عمل السحر في النفس. . وإنما لأن بطرس. . متصل بها. . قريب منها. . ولأن ما ساور دخيلته قد هز كيانها.. واستحوذ على مشاعرها...

وطغت عليه موجة من المرح بغتة. . فوقف. . ليتنفس وفكر هنيهة.. قائلاً:

- ألا إن الماضي لمتماسك بالحاضر. . بحلقات من الحوادث تربط بعضها بعضاً.! وخيل إليه أنه أدرك كنه هذه الحلقات.. إنه حين يقبض على حلقة تتحرك الأخرى...

ثم خاض النهر في أحد القوارب.. وصعد إلى التل.. ووقف يرنو عبر قريته ثم إلى الغرب حيث يلوح في الأفق البعيد خيط واه من النور خلفته الشمس الحمراء..

obeikandl.com

وظن أن الجمال المبدع. . والحق الخالد. . اللذين قادا ركب البشرية المواج. . هنالك في الحديقة. . وفي فناء الكاهن الأكبر.. ما زالا على جبروتهما حتى الساعة. . بل إنهما أحوج ما تكون إليه الإنسانية. . وذلك العالم الأرضي!

وبدأ يستشعر شيئاً فشيئاً. . بالحيوية. . والقوة وذلك الانتظار الحلو للسعادة - وهو انتظار لا يمكن الإحاطة بكنهه - ترقب لسعادة مجهولة غريبة. . وانقشعت السحب من أمام عينيه. . فبدت الحياة رائعة. . زاخرة بشتى المعاني النبيلة. . .

obeikandl.com

الفهرس

مقدمة..ص3
السلطان وولده.......مكسيم جوركي...........................ص15
الملاك.......تولستوي...ص25
الحمى.....أنطون تشيخوف.....................................ص49
شجرة عيد الميلاد.....دوستويفسكي..........................ص59
رثاء....... أنطون تشيخوف.....................................ص65
النفس الرقيق....إيفان بونين..................................ص69
في المزرعة..... إيفان بونين.....................................ص77
الكذب......نيكولايفتش اندريف.............................ص83
الخادم......ص. سيمونوف......................................ص95
الوفاء المذبوح....إيفان تورجنيف...........................ص99
قصة المفاتيح.......مكسيم جوركي.........................ص105
من الماضي....... أنطون تشيخوف..........................ص117

openkanal.com